
مطبوعات كتابى
يصدرها
حلمى مراد
الترجمة الكاملة لتحفة
أناتول فرانس
الآلهة عطشى!

أناتول فرانس :

الآلهة عطشى!



LES DIEUX ONT SOIF

PAR

ANATOLE FRANCE

الثمن ١٢ قرشا

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـا كتاب جـديد في أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها اربعة وستون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة
• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق .١٤ قرشا سنويا خالص البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عـادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على احد بنـوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليمـا ، على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحـوالة بريدية .

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمي مراد

الكتاب الرابع والستون

الآلهة عطشى

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الإدارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

ثورتنا البيضاء

من حقنا ، بل من حق ثورتنا علينا ، أن نقف فى عيدها العاشر لحظات ، عند الارتفاع الذى بلغناه .. **فنحن لانسير الى الامام فحسب ، بل نحن نسير صعدا الى الايام ، على سفوح المجد ، فى طريقنا الى الذروة ..**

ومن ارتفاعنا الحالى ، نطل على منبسطات الزمن .. لاالزمن القريب ، الذى بدأ بعمر الثورة فحسب، بل الأجيال والقرون المتعاقبة ، منذ بدء التاريخ .. **واينما سرحنا بصرنا ، لانكاد نجد ما يشبه ثورتنا ..**

وليس هذا من قبيل المغالاة أو المبالغة ، أو الغرور ، ولكنه من وحى الحقيقة الخالصة ..

لقد شبهوا ثورتنا يوما بالثورة الفرنسية .. فالثورة الفرنسية كانت انتفاضة على الملكية ، فى وقت كان العالم لايزال فيه يؤمن بأن للملوك حقوقا مقدسة .. **وكذلك كان ثورتنا :** انتفاضة على الملكية ، فى وقت كان الشرق – والشرق العربى بوجه خاص – يرى فيه الملكية نظاما راسخا ، مسلما به ، تأصلت جذوره فلا سبيل الى اجتثاثه ..

وكانت الثورة الفرنسية هبة اباء على حكم فاسد ، استشرى فيه النفوذ الاجنبى .. **وكذلك كانت ثورة ٢٣ يوليو ..**

وكانت الثورة الفرنسية نهضة الشعب للظفر بحقوقه التى اغتالها حكم قوامه الاستبداد والبطش والاقطاع .. **وكذلك كانت ثورة ٢٣ يوليو ..**

حتى النتائج كانت تدعم هذا التشبيه .. فلقد بعثت الثورة الفرنسية صيحة الحرية توقظ الشعوب الغافلة فى أوربا ، وخارج أوربا .. **وقد بعثت ثورة ٢٣ يوليو صيحة الحرية فى الشرق – والشرق العربى بوجه خاص – والقارة الافريقية ..** وكانت ثورة العراق ، وثورة السودان ، من الاستجابات لهذه الصيحة ..

ولقد تحالفت الدول على الثورة الفرنسية ، فحاولت أن تخنقها بالحصار الاقتصادى ، وأن تقتلها بزحف الجيوش الاجنبية ، وأن تؤلب الشعب عليها بالأساليب الدنيئة .. بحرب الدعايات والاراجيف ، وبالمؤامرات والدسائس التى استغل فيها الامراء والاقطاعيون الذين هربوا من أضواء الحرية الى الخارج ..

وكذلك فعلوا بثورتنا ..

ومع كل هذا الشبه ، فان ثورتنا أعظم من الثورة الفرنسية ..

أعظم لأنها قامت وفى بلادنا – فعلا – قوات أجنبية ، لم تهبها ثورتنا أو تخشاها ، بل انها لم تلبث أن طردتها ..

وأعظم لأنها استعانت بالحب والتفاهم ، فلم تستحم فى الدماء ، ولم تلتف فى غلالات الارهاب ، كما فعلت الثورة الفرنسية ..

وأعظم لأنها أخذت ترفع صرحها – منذ البداية – على أسس من التخطيط ، وارساء القواعد المتينة ، فلم تصب بالنكسات ، ولم تتعرض للانهيار ، ولا للتنكر لمبادئها التى قامت عليها .. كما فعلت الثورة الفرنسية ، التى أوحت الى زعمائها بالغرور الذى أطاش صوابهم ، فبدلا من أن يدعموا مبادىء العدالة ، والحرية ، والمساواة ، اذا بهم –

فى العـــام الاول من عمر ثورتهم ـ يفرضون الارهـــاب والبطش .. واذا بهم ـ بمجرد أن تولى نابليون الامـر ـ يتجهون الى الغزو والفتح باسم التحرير ، لينشئوا على ذلك امبراطورية استعمارية ، يحاول الفرنسيون اليوم جاهدين أن يتشبثوا بآخر أجزائها ..

ثم ان ثورتنا أعظم من الثـورة الفرنسية ؛ من حيث ان الاخلاص للمبادىء ، والتفانى فى الرســالة ، والحرص على مصالح الشعب والوطن ، صرفت القائمين بالقيادة عن المصالح الشخصية التى فرقت بين قادة الثورة الفرنسية ، وجعلتهم ينقلبون بعضهم على بعض ، وينهش بعضهم بعضــا .. فراح دانتون ، ومارا ، وروبسبيير ، وغيرهم ، لينفسح الطريق أمام المغامر الكورسيكى : نابليون بونابرت .

من هذا كله نرى الأدلة على أن ثورتنا بيضاء ..

ومن أجل هــذا كله ستعيش ثورتنـــا ، وتنمو ، وتثمر ..
ولن تكون كالثورة الفرنسية التى يتنكر لها أبناؤها اليوم .. بعد ١٧٠ عاما فقط من قيامها .

ولعل الرواية التى نقدمهـــا لك اليوم « **الآلهة عطشى !** » ، تعطيك صورة من الثـورة الفرنسية على حقيقتهـــا ـ كمـــا رسمها الكاتب الفرنسى الاشـهر « **أناتول فرانس** » ـ وانت تنعم بمباهج العيد العاشر لثورتنا الموفقة الباقية ..

وكل عام وثورتنا بخير .. وتقدم .. وتوفيق .. ومجد !

المؤلف فى سطور

((أناتول فرانس)) هو الاسم الادبى لقطب من اقطاب الادب الفرنسي الحديث ، هو ((جاك أناتول ثيبو فرانس)) ، الذي ولد فى باريس سنة ١٨٤٤ ..

كان من حظه أن ولد لصاحب مكتبة ، تخصص فى بيع الكتب والمخطوطات النادرة ، فأحب القراءة واقبل عليها ..
وفى مدرسة ((ستانيسلا)) الجيزويتية ، بدا ميله للأدب الكلاسيكى القديم ، لا سيما مؤلفات ((هوميروس)) . ثم توفر على دراسة تاريخ العصورالوسطى وآدابها ، فنشأت لديهنزعة الاهتمام بالتاريخ .

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره ؛ أهدى أبويه أول أعماله الادبية : ((أسطورة القديسة رادجوند)) ، ونشر اشعارا ومقالات ، وكتب لموسوعة ((لاروس)) الكبرى مقالات عن التحف الفنية القديمة. وكان أول كتاب ظهر له هو : ((دراسة عن الفريد دى فيني)) ، فى سنة ١٨٦٨ . ثم نشر بعض دواوينه الشعرية . ومالبث أن عين — فى سنة ١٨٧٦ — مساعدا لأمين مكتبة مجلس الشيوخ الفرنسى ..

وفى سنة ١٨٧٩ ، نشر مجموعتين قصصيتين : ((جوكاست)) و ((القطة العجفاء)) ، تجلى فيهما مدى تأثره بالكاتب الفرنسى ((الفونس دوديه)) ، والكاتب الانجليزى ((تشارلس ديكنز)) ، الذى ظل تأثيره عالقا به ، حتى لنرى خطوطا منه فى ((الآلهة عطشى)) .

وكانت أول قصة طويلة نشرها هى ((جريمة سيلفيستر بونار)) ، التى نشرت سنة ١٨٨٠ .. وفيها كشف عن طابع خاص ، فكانت مثالا للنثر المنغم ، الذى يحلق بالقارىء فى

أجواز الخيال .. وأتبعها فى سنة ١٨٨٥ ب **((كتاب صديقى))** .

والتحق « اناتول فرانس » بصحيفة « الطـــان » فى سنة ١٨٨٦ ، فما لبث أن تولى القسم الادبى فيها ، ونهج نهجـــا مبتكرا فى النقد . وفى سنة ١٨٩٠ ، نشر **((تاييس))** فكانت لبنة جديدة فى صرح شهرته ومجده الادبى . **وهى قصة غانية من الاسكندرية ، آلى راهب على نفسه أن يهديهـــا الى التوبة .. فتابت وتردى هو فى هواها** . وتوالت بعد ذلك مؤلفاته .. ومن اهمها : **((الزنبقـــة الحمراء))** — عن الشهوة والغيرة — و **((آراء جيروم كوانيار))** و **((بستان ابيقور))** .

وانتخب « اناتول » فى سنة ١٨٩٦ ، عضوا فى « الاكاديمية الفرنسية » . ومالبثت قضية « دريفوس » أن شغلت الرأى العـــام ، فشغل بدوره بكشف فضيحتها ، واستغرق ذلك جهوده لبضعة أعوام ، وحفزه على وضع **((التاريخ المعاصر))**.

ولم يشغله الانتاج الادبى عن الخوض فى السياسة ، فنشر: **((آراء اجتماعية))** فى سنة ١٩٠٢ ، و **((الكنيسة والجمهورية))** فى ١٩٠٤ ؛ و **((نحو أزمان أفضل))** فى ١٩٠٧ ، ثم كتب تاريخ فرنسا الحديث فى قصص خرافية — على نمط فولتير — ضمها كتاب **((جزيرة القطا))** .

وفى سنة ١٩١٢ نشر ((الآلهة عطشى !)) . **وكان قد نشرها — من قبل — فى حلقات بعنوان ((ايفاريست جاميـــلان)) ، بطلها .. وهى من أروع تحفه الادبية** .

وقد حصـــل « اناتول فرانس » على جائزة « نوبل » فى سنة ١٩٢١ .. وكان عيد ميلاده الثمانون مناسبة احتفت بها الاوساط الادبية فى العالم بأسره . ولم تنقض عليهـــا ستة أشهر ، حتى توفى .. فى سنة ١٩٢٤ .

الفصل الاول



• بكر « ايفاريست جاميلان » الرسام ، تلميذ «دافيد» ، وعضو قطاع (بون نيف) ـ قطاع هنري الرابع سابقا (١) ـ بالذهاب الى كنيسة البارنابيين العتيقة ، التى اتخذت منذ ثلاث سنوات ـ أي منـــذ ١٢ مايو سنة ١٧٩٠ ـ مقرا

---

(١) كانت باريس مقسمة الى قطاعات ، منها (بون نيف) .. الجسر الجديد .

للجمعية العامة للقطاع (٢) .

وكانت الكنيسة تقوم على بقعة ضيقة ، معتمة ، بالقرب من الاسوار الحديدية لقصر العدل .. وقد أسدل الزمن ستارا من الكآبة على الواجهة التى كانت تتألف من طبقتين — على الطراز القديم — ازدانتا بدعامات بارزة ، فى أوضاع مقلوبة ، وبمباخر ومواقد من الفخار .. وكانت النقوش الدينية قد كشطت عن الواجهة ، وكتب — فوق الباب — بحروف سوداء ، الشعار الجمهورى : « **الحرية ، والمساواة، والاخاء .. أو الموت** » .

ودلف « ايفاريست جاميلان » الى بهو الكنيسة .. كانت القباب التى شهدت قساوسة مذهب القديس بولس — فى مسوح الطقوس الدينية — وهم يرتلون الترانيم ، قد قدر لها أن تشهد الوطنيين ذوى القلنسوات الحمراء ، فى اجتماعهم لانتخاب أعضاء مجلس المدينة ، ولمناقشة شؤون القطاع .. وقد انتزعت تماثيل القديسين من محاريبها ، وحلت محلها تماثيل نصفية لبروتوس ، وجان جاك ، ولوبيلتييه (٣) .. وعلى الهيكل العارى ، وضعت وثيقة « حقوق الانسان » !

فى هذا البهو ، كانت جلسات الجمعية العامة تعقد علانية ، مرتين فى الاسبوع ، من الساعة الخامسة حتى الحادية عشرة . وكان المنبر — وقد زين بعلم الامة ذى الالوان

(٢) اقامت الثورة لجنة ثورية فى كل قطاع ، لها جمعية عامة تتألف من نواب منتخبين يمثلون أهل القطاع .

(٣) لوسيوس — جونيوس بروتوس : الذى قلب الحكم القيصرى فى (روما) . وجان — جاك روسو : الذى كانت كتاباته من بواعث الثورة الفرنسية . وجان جابرييل لوبيلتييه : من كبار كتاب فرنسا فى الربع الاخير من القرن الثامن عشر .

الثلاثة ــ يستخدم كمنصة للمتناقشين . وفى الجانب المواجه للمنبر ، أقيمت منصــة من الاخشاب السميكة ، خصصت للنساء والاطفال الذين كانوا يفدون ــ فى جموع كبيرة ــ على هذه الاجتماعات .

***

وفى هذا الصباح . استوى المواطن الشيخ « دوبون » ــ النجار بميدان (تيونفيل) ، واحد أعضـــاء لجنة المراقبــة الاثنى عشر ــ أمام مكتب ، فى أســـفل المنبر ؛ وقد ارتدى قلنسوة حمراء و « الكارمانيول » (٤) . وكانت أمامه ــ على المكتب ــ زجاجة واكواب ، ومحبرة ، وكراسة اشتملت على نص الالتماس الذى كان يدعو المؤتمر (٥) الى ان يفصـــل الاعضـــاء الاثنين والعشرين الذين لم يكونوا جـــديرين بعضويته (٦) .

وتناول « ايفاريست جاميلان » القلم ، وسجل توقيعه ، فقال النجار الذى كان يشغل منصب القاضى : « كنت أعرف تماما انك ستسجل اسمك ايها المواطن جاميلان ، فأنت رجل صادق ، ولكن القطاع غير متحمس ، وينقصــــه الاخلاص وصدق النية .. لقد اقترحت على لجنة المراقبة ان لا تمنح شهادة « المواطن » الى أى امرىء لم يوقع الالتماس ! » .

(٤) معطف قصير شاع ارتداؤه فى عهد الثورة الفرنسية .

(٥) المؤتمر ــ أو الجمعية الوطنية كما يسميه بعض الكتاب ــ هيئة ثورية قامت فى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ ، لتحل محل الهيئة التشريعية فى فرنسا . وهى التى أعلنت قيام الجمهورية ، وقضت بالاعدام على لويس السادس عشر ، وسحقت العناصر الملكية ، ودحرت الدول الاوربية التى حاولت غزو فرنسا لاعادة الملكية .

(٦) النواب الجيرونديون الذين عارضوا المذابح ، وأبوا التصويت باعدام الملك ، وكانوا يرون الاصلاح بدستور يقيد سلطان الملك .

فقال جاميلان : « اننى على استعداد لأن أوقع بدمى حكم الاعدام على الخونة التحالفيين . لقد ابتغوا موت «مارا» (٧) ، فليهلكوا هم ! » . ورد « ديبون » الشيخ قائلا : ((ان الذى يضيعنا هو روح عدم الاكتراث . ففى قطاع يضم تسعمائة مواطن لهم حق التصويت ، لاتجد خمسين يحضرون الاجتماع . لقد كنا فى أمس ثوانية وعشرين !))

وقال جاميلان : « اذن ، فمن الواجب ان نجبر المواطنين على الحضور . بفرض غرامة ! » . فهتف النجار مقطبا جبينه : « هه ! هه !.. لو انهم اتوا جميعا ، لكان الوطنيون أقلية بينهم.. هل لك ــ ايها المواطن جاميلان ــ فى كأس من النبيذ فى صحة الطيبين الذين بلا سراويل ؟ » (٨) .

وكنت تقرأ على حائط الكنيسة ــ الى جوار آيات الانجيل ــ هذه الكلمات يصحبها رسم اسود ليد تشير اصبعها السبابة الى الردهة المفضية الى الاورقة : ((اللجنة المدنية)) ، ((لجنة المراقبة)) ، ((لجنة البر والمعونة)) . وقبلها ببضع خطوات ، كان المرء يصادف باب المخزن الذى كان مخصصا ــ من قبل ــ للمخلفات المقدسة ، وقد علته هاتان الكلمتان : ((اللجنة العسكرية)) . فدفع « جاميلان » هذا الباب ، واذا بسكرتير اللجنة منهمك فى الكتابة ، على نضد كبير ازدحم بالكتب والاوراق ، وسبائك الفولاذ والقذائف (الخرطوش) ، وعينات من تراب البارود .

ــ سلاما أيها المواطن ترويير .. كيف أنت ؟

ــ انا ؟.. فى ابدع حال !

---

(٧) جان ــ بول مارا : من زعماء الثورة ، وقد حرض على مذابح سبتمبر ١٧٩٢ ، وفرض عهد الارهاب ، ثم اغتالته ((شارلوت كورداى)) سنة ١٧٩٣.

(٨) الذين بلا سراويل ، ترجمة لمصطلح ((السنكيلوت)) ، الذى سنستعمله طوال الرواية .. وهو لقب أطلق على الثوريين من العامة ، اذ ذاك .

وكان سكرتير اللجنة العسكرية « فورتونيه تروبير » يبدى هذه الاجابة عينها ـ بلا تغيير ـ لمن يتساءلون عن صحته ، لا لينبئهم عن حاله ، وانما ليقتضب كل حديث فى هذا الامر . وكان فى الثامنة والعشرين من عمره ، جاف البشرة ، قليل الشعر ، احمر الوجنتين ، محدودب الظهر .. وقد كان يمتلك دارا عريقة فى القدم لصنع العدسات البصرية ـ فى (كيه ديز اورفيفر) ـ نزل عنها فى سنة ١٧٩١ لعامل كهل ، كى يفرغ الى مهامه فى بلدية باريس . وقد أورثته عينيه الجميلتين ، اللطيفتين ، الزاخرتين بالعاطفة ، وشحوبه ، وحياءه .. **اورثته كل هذا ام فاتنة ، ماتت فى العشرين منعمرها ، وظل بعض السنين فى الحى ، يحتفظون لها باعذب ذكرى** .. كما ورث نفسا عادلة ، مثابرة، عن ابيه الذى كان اخصائيا فى صناعة عدسات الابصار ، وكان يوفر للملك حاجته منها ، وقد أودت به علة زوجته قبل ان يبلغ الثلاثين .

وقال « تروبير » ، دون ان يكف عن الكتابة : « وانت أيها المواطن .. كيف حالك ؟ »

ـ بخير .. هل من جديد ؟

ـ ابدا .. لا شىء . كل شىء هادىء هنا ، كما ترى .

ـ والموقف ؟

ـ الموقف باق على حاله دائما .

كان الموقف داعيا الى الانزعاج . فقد كان أبدع جيش للجمهورية محاصرا فى (ماينس) ، وكانت (فالانسيين) محاصرة ، وقد استولى « الفانديون » (٩) على (فونتناى)

---

(٩) اشعل اشراف مقاطعة (فانديه) ورجال الكنيسة فيها نار حرب اهلية لصالح الملكية .

.. وكانت (ليون) ثائرة ، وجبال (السيفين) حافلة بالقلاقل . والحدود مفتوحة للاسبانيين ، وثلثا المقاطعات بين مغزوة ومتمردة ، وباريس تحت مدافع النمسويين ، بلا مال ولا خبز !

وواصل « فورتونيه تروبير » الكتابة بهدوء ، فقد كانت القطاعات مكلفة بأمر من مجلس الادارة ـ « أنكومون » ـ (١٠) بحشد اثنى عشر الف رجل للقتال الدائر فى (فانديه) ، فانهمك « تروبير » فى اصدار التعليمات الخاصة بتجنيد وتسليح القوة التى فرض على (بون نيف) ـ التى كانت تدعى (هنرى الرابع) سابقا ـ تقديمها . وكان لابد من تخصيص كافة البنادق ـ ذات الرصاص ـ الى جنود الجيش الرسمى ، اما رجال الحرس الوطنى فى القطاع ، فكان لابد من تسليحهم ببنادق الصيد والحراب .

***

ووضع فورتونيه تروبير قلمه ، وقال : « اذهب اذن الى المؤتمر ـ ايها المواطن ايفاريست ـ واطلب موافاتنا بتعليمات لحفر أرض الاقبية ، وغسل التراب وتحليله ، للحصول على ملح البارود . فليس يكفى ان تكون لدينا مدافع ، بل لابد من البارود كذلك ! »

وولج مخزن المخلفات المقدسة السابق ، احدب ضئيل الجسم ، وقد دس قلما خلف اذنه ، وحمل ورقا فى يده . ذلك كان المواطن « بوفيزاج » ، من رجال لجنة المراقبة . وقال : « ايها المواطنان ، لقد تلقينا انباء سيئة . فان « كوستين » قد أجلى عن لاندو » .

---

(١٠) هيئة ثورية اقيمت فى باريس فى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ ، وكانت اقوى اداة لدعاة الارهاب .

فصرخ جاميلان : « ان كوستين خائن ! »

وقال بوفيزاج : « ستقضى عليه المقصلة ! »

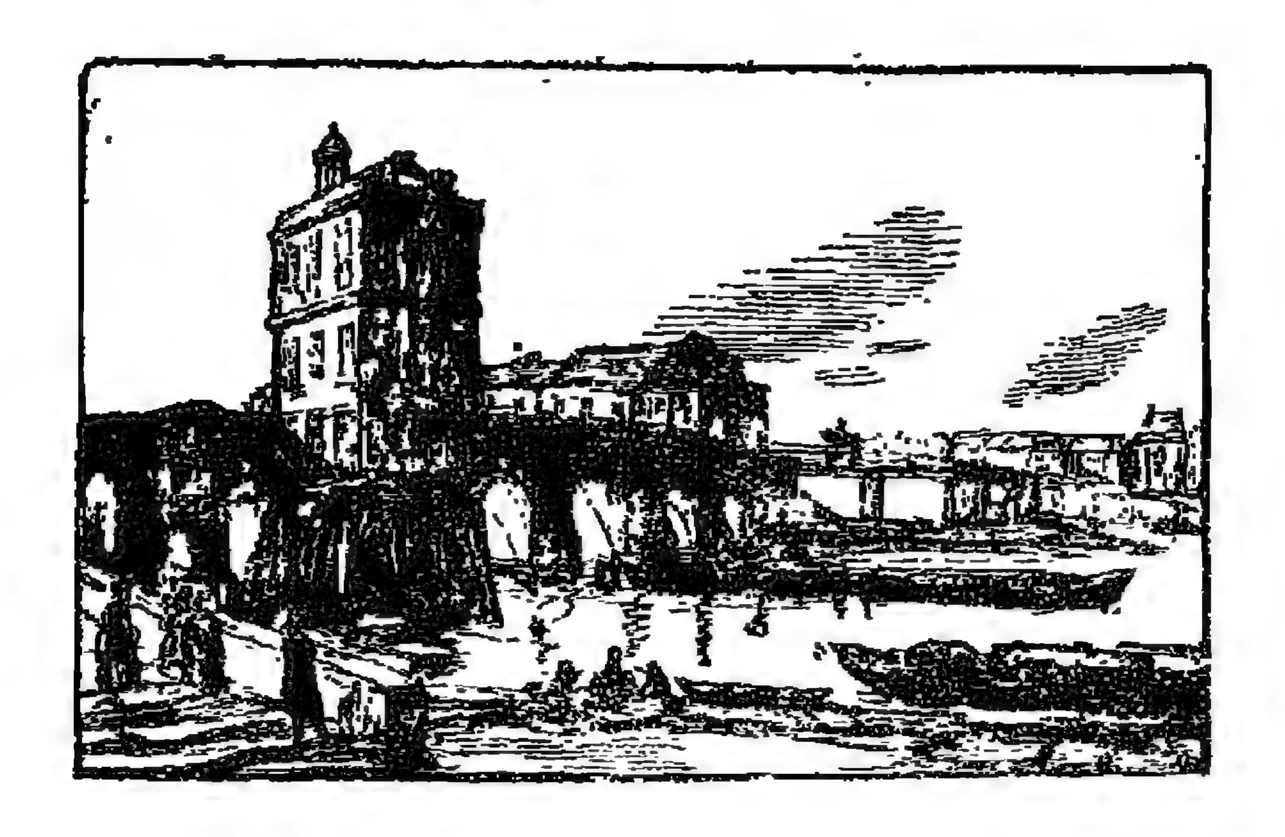
فقال « تروبير » بصوته المتحشرج قليـــلا ، يشرح رأيه بهدوئه المعهـــود : **« ان المؤتمر لم ينشىء لجنة للأمن العام عبثا . فلسوف يفحص مسلك كوستين هناك ، وسواء كان غير كفء أو كان خائنا ، فسيعين فى مكانه قائد يعقد العزم على النصر .. هذا ما سوف يكون ! »**

وقلب الاوراق ، واجرى خلالها بصر عينيه المكدودتين ، ثم قال : « لكى يؤدى جنودنا واجبهم بدون مشقة ولا معوق، يجب ان يعرفوا ان الاهــــل ــ الذين خلفوهم فى بيوتهم ــ يتمتعون بالامان والطمأنينة . فاذا كنت على رأيى هـــذا ؛ ايها المواطن جاميلان ، فعليك بأن تطالب معى ــ فى الاجتماع القادم ــ بأن تتعاون « لجنة البر والمعونة » مع « اللجنـــة العسكرية » على مساعدة الاسرات المحتاجة ، التى يكون لها اقرباء فى الجيش » .. وابتسم ، ثم غمغم : « هذا ما ســوف يكون .. لسوف يكون ! » .

لم يكن هذا السكرتير المتواضع للجنة بأحد القطاعات ، والذى كان يشتغل اثنتى عشرة ساعة ، بل اربع عشرة ساعة فى اليوم ، أمام نضد من الخشب الابيض ، لدفع الخطر عن وطنه .. لم يكن يرى شيئا من عدم التناسب بين ضخامة الواجب المفروض وضآلة الوسائل ، بل كان يشـــعر بأنه مندمج فى جهد مشترك بين جميع المواطنين ، وانه جزء من جسد واحد يمثل الامة ، وان حياته قد اندمجت فى حيـــاة

شعب كبير . كان من اولئك الذين يعدون العـــدة بعد كل هزيمة ، لنصر مستحيل يرون فى تحمس وصبر ان لابد من تحقيقه . وكان لابد لهم من النصر .. فان هؤلاء الرجـــال المغمورين الذين قوضوا الملكية ، وقلبوا نظام العالم القديم ، من امثال « تروبير » هذا ــ صانع عدســـــات الابصار ــ و « ايفاريست جاميلان » هذا ، الرسام النـــكرة .. هؤلاء الرجال المغمورون ، لم يكونوا يتوقعون من اعدائهم رحمـــة ما !.. ولم يكن امامهم سوى ان يختاروا بين النصر والموت فحسب .. ومن هنا كان حماسهم وتحفزهم !

الفصل الثانى



• ما ان غادر «ايفاريست جاميلان» كنيسة البارنابيين، حتى سار نحو ميدان ولى العهد ، الذى بات يدعى (ميدان تيونفيل) ، تكريما لمدينة منيعة صامدة .. وكان هذا الميدان يقع فى أشد احياء باريس ازدحاما ، ومن ثم فانه فقد - منذ قرابة قرن - حسن نظامه وتناسقه . فاذا القصور التى اقيمت على جوانبه الثلاثة - فى عهد هنرى الرابع - وشيدت على نسق واحد ، بالآجر الذى تتخلله سلاسل من الطوب الابيض ، لتكون مقارا لكبار رجال الدولة من ذوى الابهة .. اذا هذه القصور تستبدل اسقفها الاردوازية الشماء ، بطابقين أو ثلاثة من المساكن البائسة المبنية بالجص (الجبس)

.. واذا ببعضها يهدم عن آخره ، لتحل محله ـ فى غير ما احتفال ـ بيوت طليت بالجير طلاء زريا ؛ ولم تؤت سوى واجهات بائسة ؛ قذرة ، غير متناسقة ، تتخللها نوافذ لا حصر لها ، غير متساوية وضيقة ، تحمل أصص الزهور ، واقفاص العصافير ، وغسيلا نشر ليجف . وهنا كان يقطن حشد من الصناع ، وصاغة الحلى والمجوهرات ، والنقاشين ، وصناع الساعات وعدسات الابصار ، والمشتغلين بالطباعة ، وباعة الاقمشة ، والحائكات ، والغسالات ، وبعض المسنين من رجال القانون الذين لم يصيبوا مغنما فى فوضى العدالة الملكية .

وكان الفصل ربيعا ، واشعة الشمس الفتية تنسكب فى رفق كنبيذ خفيف ، فتنعكس على الجدران ، وتنساب مرحة الى المخادع المتواضعة . وكانت مصاريع النوافذ ـ المصنوعة من أخشاب متعارضة ، بشكل المقصلة ـ قد رفعت جميعا ، وبدت تحتها رؤوس ربات البيوت بشعور مشوشة .

وغادر كاتب محكمة الثورة بيته ، ليسعى الى عمله ، مرتبا ـ فى سيره ـ وجنات الاطفال الذين كانوا يلعبون تحت الاشجار .. ومن ناحية (بون نيف) كان الصياح يسمع معلنا خيانة « ديمورييه » الخسيس ! (١١)

وكان « ايفاريست جاميلان » يقيم فى ناحية (كيه دولورلوج) ، فى بيت يرجع الى عهد هنرى الرابع ، وقد ظل محتفظا بقسط كبير من مظهره ، فيما عدا طابق صغير أقيم من القرميد ـ تحت السقف الاعلى ـ فى عهد الطاغية

---

(١١) الجنرال شارل ـ فرانسوا ديمورييه : كان قائدا مظفرا ، كسب عدة مواقع ، ثم اعفاه « المؤتمر » من القيادة ، فنقم على الثورة ، وانضم الى أعدائها ، وباع نفسه للانجليز .

السابق على الاخير . وقد أقيمت كثير من الجــــدران والحواجز ، لتهيئة المسكن الذى كان لبرلمانى ســـابق يوما ، ليناسب اسرات التجار والصناع متوسطى الحال . ومن ثم قدر للمواطن « ريماكل » ـ البواب والحائك ـ أن يقيـــم فى مسكن حشر بين طابقين من طوابق المنزل .. مســـكن اقتضب ارتفاعه بقدر ما اقتضب عرضه . وكان « ريماكل » يشاهد فيه ـ خلال الباب الزجاجي ـ وقـــد جلس عاقدا ساقيه على منضدة العمل ، وقفاه الى السقف ، وهو يقص حلة للحرس الوطنى .. فى حين تكون المواطنـــة ريماكل ـ التى لا مدخنة لموقدها سوى بئر السلم ـ ماضية فى تسميم السكان بدخان طبيخها ومقلواتها .. والصغيرة «جوزفين» ـ ابنتهما الجميـــلة ، التى كانت فى اشراق النهـــار ، والتى كانت دائما ملطخة بالعسل الاسود ـ منهمكة فى اللعب مـــع « موتون » ، كلب النجار ..

ولقد أونيت المواطنة « ريماكل » بســطة فى القلب ، وفى البطن ، وفى الكليتين ، وعرف عنها انها كانت تغدق افضالها على جارها المواطن الشيخ « دوبون » ، أحد الاعضاء الاثنى عشر للجنة المراقبة . على أن زوجها كان محتدم الشكوك ، ومن ثم كان الـــزوجان « ريماكل » يملآن البيت بضجيج يتناوبانه فى مشاجراتهما وصلحهما . أما الطوابق العليا من المنزل ، فكان يشغلها المواطن شابيرون الصائغ ـ الذى كان حانوته فى (كيه دولورلوج) ـ وموظف فى الصحة ، واحـــد رجال القانون ، وصـــانع الحلى الذهبية ، وكثير من موظفى دار العدالة .

***

وصعد « ايفاريست جاميلان »السلم العتيق الى الطابق

الرابع والاخير ، حيث كان مرسمه وغرفة أمه . وهنـــاك ، انتهى الدرج الخشبي المطعم بالبـــلاط ، الذى كان يتلو الدرجات الحجرية العريضة المقامة فى الطـابقين الاولين . وكان ثمة سلم متنقل ، اسند الى الجدار ، ليقود الى طابق ضيق منخفض تحت سقف الدار . ومن هذا الطابق ، هبط ــ اذذاك ــ رجل بدين طاعن السن ، ذو وجه جميـــل متورد مزدهر ، كان يضم بين ذراعيه بعناء ، حزمة هائلة ، وهـــو يهمهم ــ برغم ذلك ــ متغنيا : « لقد اضعت خادمى ! »

وتوقف عن الغناء : ليلقى ــ فى ادب ــ بتحية الصباح الى « جاميلان » الذى حياه فى اخوة ، وســـاعده على انزال حزمته . فأبدى الكهل له امتنانه ، ثم قال وهو يعود فيرفع حمــله : « **هنا الدمى التى صنعتها ، وســـأحملها الى تاجر للعب بشـــــارع (ديلالوا) .. انها شعب كامل .. انها مخلوقاتى ، وقد حظيت منى باجساد قابلة للفناء معفاة من الشعور بالفرح والالم . فأنا لم امنحها فــكرا ، لأننى اله طيب !** »

ذلك كان المواطن « موريس بروتو » ، محصـــل الضرائب القديم ، والنبيل السابق .. وقد اغتنى ابوه من الاحزاب ، واشترى لقبا بثمن بخس . فكان موريس بروتو يدعى ــ فى أيام الرخاء ــ السيد « ديزيليث » ، وقد اعتاد أن يقيم فى داره ، بشارع (ديلا شيز) ، مآدب عشاء فخمة ، تنيرها عينا « مـــدام دى روشـــــمور » الحسناء .. زوجـــة احد الوكلاء القضائيين . وكانت امرأة بكل ما فى الكلمة من معان ، لم تفقد من خلة الوفاء الكريم قدر ما فقد « موريس بروتو ديزيليت » ــ بسبب الثورة ــ من مناصـــــبه ، ودخله ، وقصره ، وأراضيه ، واسمه .. فلقد أعفته الثورة من كل

هذه ،وصار يكسب عيشه برسم اللوحات تحت الابواب ذات الاقبية ، وبصنع الفطائر والعجين المقلو (نوع من الحلوى) على رصيف (الميجيسيرى) ، وبنظم الخطب لممثلى الشعب ، وبتلقين المواطنات الشـابات دروس الرقص . أما الآن ، فقد باتت ثروة موريس بروتو — فى جحره الذى كان المرء يتسلل اليه على سلم متنقل ، ولا يملك ان يقف فيه منتصب القامة — قدرا من الغراء ، وحزمة من الخيط ، وصندوقا للالوان المائية ، وبضع قراضات لقص الورق .. وكان يصنع دميا يبيعها لتجار الجملة المشتغلين بتجارة اللعب ، فيبيعونها بدورهم الى الباعة المتجولين ؛ الذين يطوفون (الشانزليزيه) بها ، وقد علقوا الى أطراف أعواد من الخشب ، تلك الاشياء البراقة التى يهفو اليها صغار الاطفال . وكان فى غمـرة الاضطرابات العامة والمحنة الكبرى — التى كان هو بالذات يتردى فيها — يحتفظ بروح صافية . فقـد كانت سلوته الوحيـدة هى قراءة ديوان « لوكريس » (١٢) الذى كان يحمله أبدا فى جيب سترته « الرديـنجوت » البالية !

***

ودفع « أيفاريست جاميلان » باب مسكنه ، فانصاع له الباب على الفور . اذ ان فقره أعفاه من ان يشـغل باله بالاقفال . فأذا ما دفعت امه الرتاج — بحكم العـادة — قال لها : **« وما جدوى ذلك ؟.. ان احدا لا يسرق نسـيج العنكبوت !.. كما ان لوحاتى ليست ذات نفع ! »**

وفى مرسمه ، كانت اللوحات تتراكم تحت طبقة سميكة

(١٢) لوكريس : شاعر لاتينى ، ولد فى (روما) سنة ٩٥ قبل الميلاد . وقد نظم ديوانا فى « طبيعة الاشياء » ، وكان من رسل المادية الابيقورية .

من الغبار ؛ او تستلقي مرتكنة الى الجدران ووجوهها اليها .. لوحات رسمت في بداية عهده بالفن ، وفقا لما كان شائعا اذذاك ، وقوامها مناظر للشجاعة رسمت فيها — بريشة ناعمة مترددة — جعب السهام الخاوية ، وطيور محلقة ، ومغامرات خطرة ، ورؤى خيالية للسعادة .. وازدحمت بحارسات الاوز ، وقد ازدانت صدور الراعيات بالورود .. ولكن هذا النمط لم يكن يناسب مزاجه ، ومن ثم فان التزمت الذى عولجت به هذه المناظر ، نم عن طهر وبراءة لاخلاص له منهما . وما كان هواة الفن ليغفلوا ذلك ، فان « جاميلان » لم يعتبر يوما ممن يجيدون رسم المناظر المثيرة للغرائز . ومع انه لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره ، فان هذه الموضوعات كانت تبدو له وكأنها ترجع الى عهد لا تكاد تعيه الذاكرة . وكان يلمس فيها حطة العهد الملكى ، والاثر المخزى الذى احدثه فساد البلاط الملكى ، فكان يلوم نفسه اذ اتجه الى هذا النوع الحقير ، فساهم بنصيب مهين فى فن العبودية !

اما وقد أصبح مواطنا فى شعب حر ، فقد أخذ يرسم بالفحم لوحات قوية تمثل الحريات ، وحقوق الانسان ، والنظم الدستورية الفرنسية ، وفضائل الجمهورية ، والهراقلة — من ابطال الشعب — وهم يقضون على أفعى الاستبداد والظلم .. **وكان يودع هذه الاعمال جميعا ، كل ما اوتى من وطنية متاججة ، ولكنه — واأسفاه ! — لم يكن يكسب منها عيشه ، فقد كان الوقت سيئا بالنسبة لأهل الفن** . وما من شك فى ان ذلك لم يكن ذنب المؤتمر الذى راح يقذف بالجيوش — من كل صوب — فى وجه الملوك .. والذى مزق نفسه بيديه ، وقسا على نفسه وغدر بها ، فى

تصميمه الأبى العنيد على الصمود فى وجه أوربا المتآمـرة المتعصبة .. والذى جعل الارهاب دستور حكمه ، فأقام لمعاقبة المتآمرين محكمة لا ترحم ، حتى اعضاءها انفسهم ، فلم تلبث ان تهشتهم .. والذى كان — فى الوقت ذاتـه — هادئا ، مطمئنا ، محبا للعلم والجمال ، فعـدل التقويم الزمنى ، وانشأ مدارس خاصة ، واقام مباريات فى الرسم والنحت ، واعتمد الجوائز لتشـجيع اهل الفن ، ونظم المعارض السنوية ، وفتح المتحف ، وطبع الاحتفال بالاعياد وبالذكريات القومية بطابع من السمو ، على غـرار ما كان يجرى فى اثينا وروما قديما .

بيد ان الفن الفرنسى الذى كان ينتشر — فيما مضى — فى انجلترا والمانياوروسيا وبولندا ، لم يعد ذا اغراء فى الخارج . كما ان هواة الرسم ، وعشاق الفن ، وكبار السادة والماليين كانوا قد أفلسـوا ، أو هاجروا ، أو اختبـأوا . أما الذين أكسبتهم الثـورة ثراء ، من فلاحين ، ومتجرين فى الشؤون المدنيـة ، ومتجـرين فى الاوراق المـالية ، وموردين لمؤن الجيوش ، وقيمين على اموال المقامرين فى (الباليـه — رويال) .. اما هؤلاء فلم يعودوا يجسرون على اظهـار بذخهم ، ومن ثم فانهم لم يعودوا يحفلون بالرسم .. وكان لابد من سمعة « رينو » ، او اسم « جيرار » الشاب لبيع أية لوحة . أما « جريز » و « فراجونار » و « هوأن » فقد هووا الى درك الفاقة . واصبح « برودون » يغذى زوجته وامرأته بالنزر اليسير ، عن طريق رسم موضـوعات كان « كويا » يحفرها بطـريقة النقش والتطعيم . كما ان الرسامين الوطنيين « انيكان » و « فيكار » و « توبينو — لوبرون » أصبحوا يمانون الجوع .

اما « جاميلان » فقد أصبح عاجزا عن تدبير نفقات لوحة واحدة ، ولم يعد قادرا على ان يدفع للنموذج (الموديل) أجرها ، ولا على شراء الألوان ، فترك لوحته الكبيرة « الثائرون يطاردون الطاغية الى الجحيم » ، ولما يتم رسمها .. وكانت تشغل نصف المرسم ، وقد ضمت صورا ناقصة مرعبة ، أكبر حجما من الاشكال الطبيعية ، وبحشد من الثعابين الخضراء وقد ابرز كل منها لسانين حادين ملتويين .. وفي المقدمة – الى اليسار – كانت تتبدى معالم «كارون»(١٣) هزيل وحشى ، فى قاربه .. كانت تحفة قوية ، حسنة الرسم ، ولكنها توحى بالقيود المدرسية فى الفن . وكانت ثمة لوحة اقل حجما ، ولم تكتمل كذلك – وقد علقت فى اكثر بقاع المرسم ضوءا – اكثر براعة وقربا من الطابع الطبيعى . تلك كانت صورة « اوريست » واخته «اليكترا» تنهضه فى سرير أوجاعه . وكانت الفتاة ترى وهى ترفع – بحركة حانية – الشعر المهوش الذى كان يحجب عينى اخيها . وكان راس « أوريست » جميلا وحزينا ، يستطيع المرء أن يتبين فيه شبها بوجه الرسام نفسه (١٤) .

وكثيرا ما كان « جاميلان » يتأمل هذا المنظر بعين متحسرة ، وذراعاه ترتجفان شوقا الى الرسم ، وتمتدان الى شكل « اليكترا » – الذى رسم بخطوط عريضة – ثم تهويان فى عجز .. كان الرسام مفعما بالحماس ، وكانت روحه تنزع الى جلائل الاعمال . ولكنه كان مضطرا الى ان

---

(١٣) فى الاساطير اليونانية ان الارواح تنتقل الى نهر (ستايكس) – الذى يحيط بعالم ما تحت الأرض – فى قارب تقوده شخصية خيالية هى «كارون»

(١٤) « أوريست » ماساة كتبها يوريبيدس سنة ٤٠٨ قبل الميلاد ، عن ابن « اجا ممنون » الذى قتل امه – بالإتفاق مع اخته « اليكترا » – انتقاما لابيه .

يعكف على الأعمال التى كان يطلب اليه اداؤها ، فينجزها فى غير تحمس ، لانه كان مضطرا الى ارضاء ذوق العامة ، ولأنه كذلك لم يكن يعرف كيف يسبغ على التوافه طابع الفن العبقرى . فكان يرسم مناظر رمزية صغيرة ، يحفرها زميله « ديماهى » بدقة بالغة ؛ لتطبع باللون الاسود أو بالالوان ، فيأخذها — بثمن بخس — تاجر للصور المطبوعة على الخشب ، فى شارع (أونوريه) ، هو المواطن « بليز » . ولكن تجارة الصور المطبوعة على الخشب كانت تسير من سيء الى أسوأ ، كما كان «بليز» يقول .. فلم يعد أحد — منذ فترة من الزمن — راغبا فى الشراء !

على ان « جاميلان » اهتدى فى هذه المرة — وقد جعلته الحاجه أريبا — الى اختراع موفق ومبتكر — كما بدا له هو ، على الأقل — كفيل بأن يوفر الثروة لتاجر الصور الخشبية ، وللحفار ، وله هو .. **تلك الفكرة تمثلت فى ورق للعب ذى طابع وطنى ، فبدلا من الشائب (الروا) ، والبنت (الدام) ، والولد (الفائيه) التى كانت فى ورق اللعب — فى العهد القديم — ابتكر جاميلان ((العبقرية)) ، و ((الحرية)) و ((المساواة))** . واذ فرغ من تصميم كل هذه الاشكال ، واتم منها عددا ، تملكته اللهفة الى أن يحمل الى «ديماهى» ماوجده منها صالحا للحفر . وكان الشكل الذى بدا له أنه أفضلها ، يمثل متطوعا عسكريا يرتدى القلنسوة الثلاثية الاركان ، وسترة زرقاء ذات حواف حمراء ، وسروالا (بنطلون) اصفر ، وطماقين أسودين **(١٥)** ، وقد جلس على صندوق وقدماه على كومة من الرصاص ، وبندقيته بين ركبتيه . ذلك هو « المواطن القلب » الذى ابتكره ليحل محل

---

(١٥) « طزلك » .. وقاء من الجلد يلبس فوق الحذاء .

« القاليه القلب » . ولقد ظل جاميلان يرسم متطوعين ـ منذ ستة شهور ـ وكان يرسمهم بشــــــغف دائما .. وباع بعض صورهم فى ايام الحماس المتأجج .. وبقى كثير منهـا على جدران المرسم ، وخمس أو ست ـ مرسـومة بالالوان المائية ، و « الجواش » ، ونوعين من الاقـلام ـ ملقاة على المنضدة أو على المقاعد .

***

وعندما اقيمت المنصات فى كافة ميــــادين باريس ـ فى شهر يوليه سنة ١٧٩٢ ـ لتسجيل اســــماء المتطوعين ، وازدانت الملاهى جميعا بأوراق الشجر ، وهى تضــــج بصيحات : « عاشت الامة !.. الحيــاة الحرة أو الموت ! » ، بات « جاميـــلان » عاجزا عن أن يعبــر الجسر الجـديد (بون ـ نيف) ، أو ان يمر بدار البلدية ؛ دون ان يقفز قلبه نحو الخيمة المــــزدانة بالبيارق ، حيث كان النواب ذوو الاوشحة يثبتون اسماء المتطوعين على انغام « المارسلييز » .. ولكنه كان يخشى ان يترك امه بلا عائل ولا نصير ، اذا هو التحق بالجيوش .

ودخلت المواطنة الارملة « جاميلان » الى المرســـم ، تسبقها ضوضاء من صفير انفاسها المتعسرة ، وقد نضحها العرق ، واحمر وجهها ، وتتابعت لهثاتها ، وتدلت الشـارة القومية من قلنسوتها باهمال ؛ توشك أن تفلت من مكانها . ووضعت سلتها على مقعد ، وراحت تشكو من غلاء المعيشة ، وهى تستوى معتدلة فى وقفتها لتتمكن من التنفس بمزيد من اليسر .. كانت تشتغل ببيع السكاكين فى شـــــارع (جرينيل ـ سان ـ جيرمين) ، عند اللافتــة التى تحمل

عباره « مدينة شاتيليرو » ، عندما كان زوجها على قيد الحياة .. أما الآن — وقد غدت ربة بيت فقيرة — فانها أقامت معتكفة لدى ابنها الرسام . وكان أكبر الابنين اللذين رزقتهما . **اما الأصغر فكان فتاة ، هي ابنتها « جولي » التي كانت — من قبل — عارضة للازياء في شارع (اونوريه) ، وكان من الافضل تجاهل ما صارت اليه ، اذ لم يكن من الخير القول بانها هاجرت مع احد « الأرستقراطيين » !**

وقالت المواطنة جاميلان — متنهدة — وهي تعرض على ابنها رغيفا من عجين سميك لـ... : « رحماك يارب .. ان سعر الخبز قد تجاوز كل حد .. فما بالك لو انه كان من الحنطة النقية . ولا وجود — في السوق — لبيض أو جبن . اننا لفرط أكل الكستناء سنغدو كستناء ! » (١٦) .. وعادت تقول بعد صمت طويل : « لقد رأيت في الطريق نسوة لا يمتلكن شيئا يطعمنه أطفالهن . ان البؤس شديد الوطأة على أهل الفقر ، ولسوف يظلون كذلك طالما أن الامور لم تستقر على ما كانت عليه ! »

فقال « جاميلان » ، وهو مقطب الجبين : « ان الضيق الذي نعانيه يا أماه راجع الى المحتكرين والمضاربين ، الذين يجيعون الشعب ، ويتآمرون مع الاعداء الذين في الخارج على اظهار الجمهورية بقبضة في أعين المواطنين ، وعلى تقويض الحريات . هذا ما تهدف اليه مؤامرات البريسوتبين (١٧) ،

---

(١٦) كان الكستناء (ابو فروة) ارخص من الخبز لتوفر أشجاره .

(١٧) البريسوتيون : اسم كان يطلق على حزب « الجيرونديين » ، نسبة الى « جاك — بيير بريسو » الذي كان من أبرز أعضائه ، وكان وأنصاره يؤلفون فريق اليمينيين في الجمعية العامة ، ويعارضهم « الجبليون » . وكان اليمينيون ضد مذابح سبتمبر ١٧٩٢ ، وضد اعدام الملك ، فطردوا من المؤتمر ، واعدم زعماؤهم ومنهم بريسو .

وخيانات انصـــار بيتيون (١٨) ورولان (١٩) . ولكم تكون سعداء الحظ اذا لم يأت الحلفـــاء مسلحين الى باريس ليذبحوا الوطنيين الذين لم تعجل المجاعة بعد بهلاكهم !..
ليس ثمة وقت يبدد ، بل لا بد من تحديد سـعر الدقيق ، واعدام اى مستغل لقوت الشعب ، وأى مثــير للفتن او متحالف مع الاجنبى . ان المؤتمر ينشىء محكمة استثنائية لمحاكمة المتآمرين ، وهى تتألف من وطنيين ، ولكن .. هل يكون لدى اعضائها طاقة كافية للذود عن الوطن ضـد كل أعدائه ؟.. ليكن لنا فى « روبسبيير » أمل ، فهو رجــل مخلص .. وليكن لنا فى « مارا » ــ بوجه خاص ــ أمل ، فان هذا الاخير يحب الشعب ، ويتحرى مصالحه الحقيقية فيعمل من اجلها . ولقد كان الاول دائما فى كشف الخونة ، وفى احباط المؤامرات .. انه نزيه وغير هياب . وهو وحده القادر على انقاذ الجمهورية من الخطر ! »

وهزت المواطنة جاميلان راسها ، فأسقطت الشارة المهملة عن قلنسوتها ، وهى تقول : « حسبك يا ايفاريست !.. ان بطلك « مارا » انسان كغيره ، ولا يفضل سـواه فى شىء . انك شاب ، وانك لتنساق للاوهام .. وكل الذى تقـــوله اليوم فى « مارا » ، قد قلته ــ من قبــل ــ فى ميرابو ، وفى لافاييت ، وفى بيتيون ، وفى بريسو » . فصاح جاميلان وقد نسى ذلك حقا : « ابدا ! »

وأخذت المواطنة طرفا من المنضدة الخشبية البيضـــاء ــ

---

(١٨) بيتيون دى فيلنيف : عمدة باريس سنة ١٧١٩ ، ورئيس المؤتمر .

(١٩) رولان ديلا بلاتيير : وزير الداخلية سنة ١٧٩٢ . وكانت زوجتــه نصيرة للادب والفن ، ولها « صالون » للجيرونديين فيه القدح المعلى ، مما أدى بها ــ هى الاخرى ــ الى المقصلة . وهى صـــاحبة العبارة المأثورة « ايتها الحرية ، كم من الجرائم ترتكب باسمك » .



.. فقال جاميلان : ((حسبك يا أماه ، اصمتي !..)) (ص ٣٢)

المتخمة بالاوراق والكتب وفراجين الرســـــم والاقلام ــ فوضعت وعاء خزفيا مليئا بالحساء ، وطبقين من القصدير، وشوكتين من الحديد ، والرغيف الاسمر ، وابريقا به نبيذ خفيف . وتناول الابن والام الحساء فى صـــمت ، وختما عشاءهما بقطعة صغيرة من شحم الخنـزير ، وقد وضعت الام نصيبها على خبزها ، وقطعته الى لقم صـغيرة راحت تنقلها بحذر ــ على سن مطواتها ــ الى فمها الخـــالى من الاسنان . ثم اخذت تمضغ هذا الغذاء ــ الذى تكلف ثمنا غاليا ــ فى استمراء وعناية .

وتركت الشطر الافضل فى الطبق لابنها الذى ظل يفـكر مستغرقا ، فراحت تردد له فى فترات متســـاوية : « كل يا ايفاريست .. كل ! » . وكانت هذه العبـارة تتخذ على شفتيها وقار التعاليم الدينية .. وما لبثت الام ان استأنفت شكاواها من غلاء المعيشة ، فعاد جاميلان يدعو من جـديد الى التسعير كعلاج اوحد لهذه العلل . ولكنها قالت :

ــ لم تعد هناك نقود ، فلقد نقلها المهاجرون عن آخـرها .. ولم تعد هناك طمأنينة ، فكل شىء يدعو الى اليأس !

فصاح جاميلان : « حسبك يا اماه ، اصمتى !.. ما ضر ان نعانى الحرمان والآلام لفترة عابرة ، اذا كانت الثـورة ستعمل لخير الجنس البشرى على مر القرون ؟! »

وغمست العجوز خبــــزها فى نبيذها ، وقد أشرقت اساريرها وهى تفكر مبتسمة فى أيام شبابها ، حين كانت تلعب على العشب فى عيد الملك . وعاودتها كذلك ذكرى اليوم الذى سألها فيه « جوزيف جاميلان » ــ بائع السكاكين فى بلدها ــ ان تتزوجه . وأخذت تروى ــ بالتفصيل ــ كيف بيارت الامور .. فلقد قالت لها امها : « ارتدى ثيـابك ،

فنحن ذاهبتان الى حانوت السيد بياناسى الصائغ ـ فى ميدان (جريف) ـ لنشهد اعدام « داميان » بتمزيقه اربا ! » .. ولقيتا عناء فى شق طريق لهما خلال الجموع المشبوبة الفضول . ووجدت الفتاة « جوزيف جاميلان » فى حانوت السيد بياناسى ؛ وقد ارتدى حلته الوردية الجميلة ، فأدركت لفورها سر مجيئه .. وطيلة الوقت الذى قضته لدى النافذة ، لتشهد قاتل الملك وهو يكوى بالكلابات المحمية ، ثم يصب عليه الرصاص المصهور ، ويشد الى خيول اربعة فتمزقه ، ثم يلقى به الى النار .. **طيلة هذا الوقت كان السيد « جوزيف جاميلان » يقف وراء الفتاة ، ولا يكف عن اطراء لون بشرتها ، وشكل شعرها ، وقوامها !**

وأفرغت ثمالة كوبها ، واستطردت مستعيدة ذكرى حياتها :

ـ ولقد جلبتك الى الدنيا يا « ايفاريست » بأسرع مما كنت انتظر ، من جراء رعب انتابنى ، اذ كنت حبلى ، وكادت الجموع ـ التى كانت تهرع لتشهد اعدام السيد « دولالى » (٢٠) ـ ان توقعنى على الجسر الجديد . ولقد كنت من صغر الحجم ـ عند مولدك ـ الى درجة أن الطبيب كان يخشى ان لا تعيش ، ولكنى كنت اوثق من ان الله سينعم على فيصونك . وربيتك على خير ما كان بوسعى ، دون أن أضن بعناية ولا بنفقة . ومن الانصاف يا ايفاريست أن أقول انك قد اظهرت لى عرفانا بالجميل ، وانك سعيت ـ منذ طفولتك ـ الى مجازاتى بقدر وسائلك . **ولقد كنت**

---

(٢٠) توماس ـ ارثر دولالى ، بارون تولوندال ، الذى كان حاكما للبقاع الفرنسية فى الهند ، فهزمه الانجليز ، واتهم بخيانة فرنسا فاعدم سنة ١٧٦٦ .

بفطرتك محبا ولطيفا . وما كانت اختك بالجاحدة القلب ؛ ولكنها كانت أنانيـــة وعنيفة . على انك أوتيت من الرحمة بالبائسين فوق ما اوتيت هى .. وعندما كان الصــفار من صعاليك الحى يغيرون على اعشاش الطيور فوق الاشجار ، كنت تنتزع الفروخ من ايديهم لتردها الى امهاتها . وكثيرا ما كنت لا تنثنى الا بعـــــد أن يركلوك ويضربوك بقسوة .. وفى السابعة من عمرك ، كنت تمضى فى الشارع — فى هدوء — وانت تردد درسك الدينى ، بدلا من التشاجر مع اقــران السوء ، وكنت تأتى بكل من تلتقى بهم من الفقراء الى المنزل لمساعدتهم ، حتى اضطررت الى ان اسوطك لتقلع عن هذه العادة . وكنت لا تقوى على ان ترى مخلوقا يتألم دون ان تذرف الدموع . وعندما اســـتكملت نموك ، غدوت بارع الحسن . وشد ما كانت دهشتى اذ لم يبد انك كنت تفطن الى ذلك ، فكنت — فى ذلك — جد مختلف عن سواد الفتية ذوى الجمال ، الذين يختالون ويزدهون بأشكالهم !

***

ولقد قالت الام العجوز صدقا ، اذ كان لايفاريست — فى سن العشرين — وجه وقور فاتن ، ذو جمـــال يجمع بين الصرامة والانوثة فى آن واحد .. وجه له قسمات وجـــه « مينرفا » **(٢١)** . أما الآن ، فان عينيه المكتئبتين وخديه الشاحبين اصبحت تعبر عن روح حزينة عنيفة . بيــد ان نظرته استردت — للحظة — رقة باكورة الشباب ، عنـــدما التفت الى امه . فاستأنفت حديثها قائلة :

— كان بوسعك أن تستغل محاســنك للايقاع بالفتيات ،

---

(٢١) ربة الحكمة والفن عند الاغريق .

ولكنك كنت تستطيب البقاء بالقرب منى فى الحانوت . فكنت أعمل احيـــانا على ان اقصيك عن التعلق بذيلى ، وعلى ان تنطلق لتمرح قليلا مع اقرانك . وانى لأشهد لك ياايفاريست – الى أن أسجى على فراش الموت – بأنك كنت ابنا بارا . فبعد وفاة ابيك ، آليت على نفسك – بشهامة – أن تكفلنى ، وبالرغم من أن مهنتك لا تـــدر عليك دخلا ، فانك لم تدعنى افتقد شيئا .. واذا كنا اليوم معـــا فى عوز وفاقه ، فلست املك ان ألومك ، اذ ان الذنب فى ذلك ذنب الثورة !

وندت عنه حـــــركة احتجاج ؛ ولكنها هـــزت كتفيها واستطردت :

– اننى لست ارستقراطية . فقد عرفت العظماء فى أوج سلطانهم ، وبوسعى ان اقول انهم كانوا يسيئون استغلال امتيازاتهم .. لقد شهدت اباك يضرب بعصى أتبـــاع دوق « كاناليبل » ، لانه لم يسرع بالتنحى عن طـريق مولاهم . وما أحببت النمسوية (٢٢) قط ، فلقد كانت مســـفة فى الفطرسة ، وكانت مبذرة كل التبذير . امـا الملك ، فكنت اعتقد انه طيب ، ولولا محاكمته وادانته والحكم باعــــدامه لما غيرت رأيى فيه . وقصارى القول اننى لا آسف على العهد القديم ، وان كنت قد قضيت فيه لحظات هانئة . ولــكن لا تقل لى ان الثورة ستقر المســاواة ، لأن البشر لن يكونوا متساوين قط .. ان هذا غير ممكن ، واقصى ما يستطاع هو قلب المعانى رأسا على عقب ، وسيبقى هنــاك دائما كبار وصغار ، وسمان وعجاف !

وكانت – وهى منهمكة فى الكلام – قد جمعت الآنية ..

---

(٢٢) مارى انتوانيت ، زوجة لويس السادس عشر . فقد كانت اميـــرة نمسوية .

ولم يعد الرسام يصغى اليها ، اذ راح يفكر فى رسم لواحد من « السانكيلوت » ، بقلنسوة حمـــراء و « كارمانيـــول » ، ليحل — فى اوراق اللعب التى ابتكرها — محل « الفاليـــه البستونى » البائد !

وانبعثت طرقات على الباب ، ثم ظهرت فتـــاة ريفية ، عرضها يفوق طولها ، شقراء ، معوجة الســاقين ، تحجب عينها اليسرى وراء عدسة ، بينما كانت عينها اليمنى ذات زرقة جد باهتة ، حتى لتكاد تبدو بيضاء .. وكانت شفتاها كبيرتين ، واسنانها تبرز فوق الشفتين .

وسألت « جاميلان » عما اذا كان هو الرسام ، وعما اذا كان بوسعه ان يرسم خطيبها فيران (جول) ، المتطـوع فى جيش (الاردين) . فأجاب جاميلان بأنه على استعداد لأن يرسم الصورة — عن طيب خاطر — عنـــــد عودة المحارب الباسل . وسألته الفتاة — فى الحاح رقيق — ان ينجز مـا طلبته فورا ، فابتسم الرسام — على الرغم منه — واعتــذر بأنه لا يملك ان يصنع شيئا بدون النمــوذج الاصلى . ولم تجبه المسكينة ، فما كانت قد توقعت هذه العقبة . وظلت جامدة ، صامتة — وقد مال راســـها على كتفها اليسرى ، واشتبكت يداها على بطنها ، وبدت رازحة تحت وطـــــأة الاسى . وتأثر الرسام ، كما استطرف مثل هذه السذاجة ، فشاء ان يسرى عن العاشقة البائســــة ، ودفع الى يدها باحدى صور المتطوعين التى رسمها بالالوان المائية ، وسألها عما اذا كان خطيبها بهذا الشكل .

والقت الفتاة على الورقة نظرة حـــزينة من عينها ، لم تلبث ان انتعشـــــــت رويدا ، ثم اشرقت ؛ ثم تألقت .. وانبسط وجهها الكبير فى ابتسامة وضاءة . وقالت أخيرا : « هذا شبهه حقا .. هذا هو فيران (جول) بشكله الطبيعى .. هذا هو فيران (جول) بكل سماته ! »

وقبل ان يفكر الرسام فى انتزاع الورقة من يديها ، كانت الفتاة قد طوتها ـ بعناية ـ بين اصابعها الحمراء الغليظة ، وجعلت منها مربعا جد صغير دسته فوق قلبها ، بين المشد والقميص . والقت الى الرسام ورقة مالية من فئة الخمسة ليبرات ، وتمنت له مساء طيبا وهى تخرج جذلة خفيفـــــة الحركة !

الفصل الثالث



• ذهب « ايفاريست » ، فى عصر ذلك اليـــوم ، لزيارة المواطن « جان بليز » ، تاجـــر الصور ، الذى كان يبيع التحف ، وادوات الزينة المصنوعة من الورق المقوى ، وكافة الطرائف كذلك .. بشارع (أونوريه)، فى مواجهة معهـــد الخطابة والبيان ، بالقرب من رصفة (الميســاجيرى) ، فى حانوت اطلق عليه « لامور بانتر » ، اى «رسام الغرام» !.. وكان المتجر فى الطابق الارضى لدار عتيقة ـ عمرها ستون عاما ـ يفضى اليه مدخل يعلوه راس مقوس ، حمل فى اعلاه صورة راس ضخم ذى قرنين .وقد ملأ قنطرة القوس رسم زيتى يمثل « الصقلى .. أو رسام الغرام » ـ نقلا عن لوحة لبوشيه ـ وكان والد « جان بليز » قد ثبت هذا الرسم

فى مكانه ، فى سنة ١٧٧٠ ، وتعاونت الشمس والمطر — منذ ذلك الحين — على محوه !

وعلى كل من جانبى الباب، كان ثمة فراغ مقبى آخر، يعلو قنطرته رأس حورية من حوريات الماء ، وقد سد بأكبر صفحة من الزجاج تسنى العثور عليها ؛ وخصص لعرض الصور المحفورة على الخشب — التى كانت شائعة إذذاك — واحدث مبتكرات النقش بالالوان . **وقد لاح فى النافذتين — فى ذلك اليوم — رسمان ابدعتهما ريشة « بوالى » فى حذق يخالطه شىء من الجفاف ، واطلق عليهما : « دروس فى الغرام الزوجى » و « صد رقيق » .. وقد فضح فيهما اليعاقبة ، فاستنكرهما ذوو العقول الطاهرة فى الوسط الفنى ..** ولوحة « المتنزه العام » لديبوكور ، وفيها شاب من علية القوم ، ارتدى سروالا فاقع الصفرة ، وقد استلقى على ثلاثة مقاعد .. وصور لبعض الخيل من رسم « كارل فيرنيه » الشاب ، وصور مناطيد هوائية ، ولوحة « حمام فيرجينى » ، وبعض مناظر اخرى منقولة عن التحف القديمة !

ومن بين المواطنين الذين كانوا يمرون زرافات أمام المتجر، كان أكثرهم رثاثة هم أطولهم مكثا أمام النافذتين البديعتين . فقد كانوا سريعى الانجذاب الى الصور لخلو حياتهم منها ، شديدى الشوق الى ان ينالوا — ولو بأعينهم — نصيبا من متاع الدنيا .. وكانوا يفغرون أفواههم اعجابا ، فى حين ان الارستقراطيين كانوا يلقون على النافذتين نظرة عابرة ، ويقطبون الجباه ، ثم يمضون !

وما ان لمح « ايفاريست » المكان عن بعد ، حتى صعد نظراته صوب احدى النوافذ التى كانت مفتوحة فوق المتجر

.. تلك هي النافذةاليسرى ، حيث كان ثمة اصيص للقرنفل الاحمر ، خلف سياج الشرفة الحـديدى المبيض . وكانت هذه النافذة تغدق النور على حجرة ((ايلودى)) ، ابنـة ((جان بليز)) . اذ كان تاجر الصور يقطن مع وحيـدته في الطابق الاول من المنزل .

وبعد أن وقف ((ايفاريست)) لحظة أمام ((لامور بانتر : كما لو كان يلتقط انفاسـه ، ادار مقبض الباب ، فوجد المواطنة ايلودى ـ التى كانت قد باعت صورتين من لوحات ((فزاجونار)) الابن و ((نايجون)) ، اختيرتا بـدقة من بين الصور الكثيرة الاخرى ـ ترفع الاوراق المالية بين عينيها الجميلتين وضوء النهار ، قبل ان تغلق عليها الخـزانة لتفحص العلامات المـائية ـ المؤلفة من شبكة من الخطوط الدقيقة ـ وهى قلقة . اذ كانت الاوراق الزائفة متـداولة أكثر من الاوراق الحقيقية ، مما احدث انزعاجا كبـيرا في أوساط التجارة . وكما كانت الحـال ـ فيما مضى ـ ازاء اولئك الذين كانوا يقلدون توقيع الملك ـ فان مزيفى النقود القومية كانوا يعاقبون بالموت . ومـع ذلك فان لوحات (كليشيهات) طبع الاوراق المالية ، كانت توجد فى كل قبو .. وكان السويسريون ينتجون الاوراق المزيفـة بالملايين فكانت تلقى فى الفنادق الريفية بالحزم .. وكان الانجليز يفرغون على سواحلنا ـ يوميا ـ طرودا منها ، لكى يزعزعوا الثقة فى الجمهورية ويهووا بأهل الوطن الى الفاقة .. و كانت ((ايلودى)) تخشى أن تتسلم أوراقا زائفـة ، وتخشى ـ أكثر من ذلك ـ انتدفع أوراقا من هذه الى الغير ، فتتهم

بالتآمر مع « بيت » (٢٣) .. ولو انها كانت تثق فى حظها ، مطمئنة الى نجاتها من كل ما يصادفها فى هذا الصدد !

***

وتأملها « ايفاريست » بتلك النظرة الساجية التى هى ابلغ من الابتسام فى الافصاح عن الحب .. وتأملته هى بنظرة شذرة ، يخالطها شيء من السخرية ، انبثقت من عينيهـــا السوداوين .. وقد انبعث هذا التعبيـــير لديها من ادراكها انها كانت محبوبة ، وانه ما كان يغضبها ان تكون محبـــوبة .. ومن ان هذه النظرة تثير العاشق ، وتحمله على أن يشكو الظلم ، أو تستدرجه الى ان يبوح بالحب اذا لم يكن قـــد فعل ، كما كان شأن ايفاريست !

وإذ أودعت الخزانة تلك الاوراق المـالية ، أخرجت من سلة التطريز وشاحا ابيض ، كانت قد بدأت تطـــــريزه ، وعكفت على الشغل . وكانت نشـــيطة وذات دلال .. ولما كانت تجيد تحريك الابرة بالفـــــريزة ، لتفتن ولتصنع ما تزدان به — فى آن واحد — فانها كانت تطرز بأساليب تتباين تباين أولئك الذين يشاهدونها .. فكانت تطرز بعـــدم اكتراث امـــــام أولئك الذين كانت تريد أن تثير فيهم وجدا عنيفا .. وكانت تطرز بدلال مائع لأولئك الذين كان يلذ لها ان تكربهم قليلا . على انها راحت تطرز بعناية لايفاريست الذى كانت ترجو ان تثير فيه عاطفة جادة !

وما كانت « ايلودى » فى مقتبل الشباب ، ولا كانت جد جميلة . بل ان المرء كان يجدها قبيحة فى بادىء الامـــر .

---

(٢٣) وليم بيت : أصغر من تولوا رئاسة الوزارة فى انجلترا ، والد عدو للثورة الفرنسية ، وقد تحالف مع النمسا ورومانيا ضدها .

فقد كانت سمراء ، تبدو فى لون الزيتون ، تحت المنديل الابيض الكبير ، الذى كان معقودا باهمال حول راسها ، والذى كانت تفلت منه خصلات من شعرها صبغت بلون ازرق خفيف .. كما كانت عيناها جذوتين تلهبان محجريهما فتسودهما .. وفى وجهها المستدير ، البشوش ، ذى الوجنتين البارزتين ، والانف الافطس قليلا ، والقسمات البدوية التى تنم عن شهوة متاججة .. فى هذا الوجه وجد الرسام صورة لرأس تمثال لربة الرعى — كان قد اعجب به لدى آل « بورجيز » (٢٤) — وقد صيغ على جسد فاره ، جمع بين القداسة والشيطنة !.. وكانت ثمة شعيرات قصيرة وخطت شفتيها الحارتين المتأججتين ، وصدر بدا كأنه منتفخ بالحنان تحت الوشاح المعقود الطرفين ، على النمط الذى كان شائعا فى ذلك العام . **وكان قوامها لدنا ، وساقاها رشيقتين ، فكان جسمها المتين البنيان يتحرك كله بدلال جامح لذيذ . أما نظرتها ، واما انفاسها ، واما اختلاجات جسدها .. كل شيء فيها كان ينادى القلب ، ويدعو الى الحب !**.. وكان منظرها خلف نضد المتجر ، يوحى بصورة حورية من حوريات الرقص ، او راقصة « الاوبرا » التى تقوم برقصة وحشية عنيفة ، وقد تجردت من جلد النمر الذى ترقص فيه ، وصولجانها المتخذ من فروع الشجر ، وأكاليلها ، فاذا بها ملتفة — بسحر ساحر — فى ستر الحشمة الذى يلف ربات البيوت فى لوحات « شاردان » .

وقالت للرسام : « ان أبى ليس هنا ، فانتظره لحظة ، ولن يلبث ان يعود ! » .

---

(٢٤) آل « بورجيز » : آسرة رومانية اشتهرت بحبها للفن .

وكانت يداها السمراوان الصغيرتان تجريان الابرة خلال النسيج الرقيق ..

ـ هل تجد هذا الرسم ملائما لذوقك يا سيد جاميلان ؟

وكان جاميلان يعجز عن الكذب والرياء ، وقد أهاج الحب صراحته وألهب شجاعته ، فقال : « انك لتطرزين بمهارة ايتها المواطنة ، ولكن ـ اذا شئت ان أصارحك القول ـ فان الرسم الذى نقلته ليس من البساطة بمكان ؛ كما انه عار أكثر مما ينبغى ، ويتمشى مع الذوق الكاذب الذى ساد فرنسا زمنا طويلا ، فى فن توشية الاقمشة والاثاث والسقوف والجدران . فهذه الفروع ، وهذه الاكاليل ، تعيد ذكرى ذلك الاسلوب التافه الزرى الذى كان شائعا فى عهد الطغيان . لقد تجدد الذوق ، وان كنا ـ للاسف ! ـ قد قطعنا شوطا بعيدا قبل التجدد . فقد كان لفن الزخرفة ـ منذ زمن لويس الخامس عشر المرذول ـ طابعا صينيا ، فكانت خزانات الثياب تصنع ببطون منتفخة ومقابض معوجة بشكل سخيف ، ولا تصلح الا لأن توضع فى النار لتدفئة الوطنيين .. **ان البساطة وحدها جميلة ، فيجب الرجوع الى القديم . ان « دافيد » يقتبس رسم الاسرة والمقاعد عن نقوش الاوانى الشرقية ورسوم هيركولانوم » (٢٥)**

فقالت ايلودى : « لقد رأيت هذه الاسرة والمقاعد ، وانها بديعة !.. لن يلبث الناس ان يعافوا غيرها .. اننى اعجب بالقديم مثلك ! »

فاستأنف ايفاريست حديثه قائلا : « بديع يا مواطنة !.. انك زخرفت وشاحك هذا بزخرفة اغريقية من أوراق

---

(٢٥) هيركولانوم : مدينة ايطالية قديمة ، اكتسحتها ثوران بركان فيزوف سنة ٧٩ ، ثم كشفت اعمال الحفر عنها فى القرن الحادى عشر

اللبلاب ، ومن الافاعي أو السهام المتقاطعة ، لكان جديرا بفادة اسبرطية . . ويك ! على ان يوسعك ان تحتفظى بهذا الرسم اذا عمدت الى تبسيطه ، والى تقويم خطوطه ! »

وسألته عما ينبغى ان تمحوه من الرسم ، فانحنى على الوشاح ، واذا وجنتاه تمسان خصلات « ايلودى » . والتقت يداهما على قطعة القماش ، وامتزجت انفاسهما ، فتذوق « ايفاريست » — فى تلك اللحظة — سرورا لا حد له . ولكنه حين احس بشفتى « ايلودى » قريبتين من شفتيه ، خشى ان يكون قد أساء الى الفتاة ، وارتد بسرعة .

وكانت المواطنة « بليز » تحب ايفاريست جاميلان : كانت تراه بديع الحسن بعينيه الواسعتين النفاذتين ووجهه البيضاوى الجميل ، وشحوبه ، وشعره الاسود الغزير ، وطلعته المهيبة ، وهدوء اعصابه ، وصرامة مسلكه ورزانة كلامه الذى لم يكن ينطوى على شىء من الملق . والى جانب حبها له ، فانها توسمت فيه نبوغا فنيا متقدا ، لا يلبث ان يتفجر يوما فى تحفة فنية ، فيذيع اسمه .. وقد زادها هذا حبا له . ولم يكن لدى المواطنة بليز اى ايمان بطهر الرجولة ، فلم يكن ليخرق مبادئها الخلقية أن يستسلم الرجل لعواطفه وميوله وشهواته . ولقد احبت « ايفاريست » الذى كان عفا طاهرا ، ولكنها لم تحبه لانه كان عفا ، وانما ألفت فيه ما كان عليه من فضيلة تجعله بمنأى عن التزمت ، وعن الغيرة ، وعن الشكوك ، وعن التوجس من المزاحمين والمنافسين !

على انها — فى تلك اللحظة بالذات — قضت بانه كان متحفظا اكثر مما ينبغى . واذا كانت « اريسى » — التى ابتدعها خيال « راسين » — قد احبت « ايبوليت »

واعجبت بما لهذا البطل الشاب من فضيلة خشنة غير مصقولة ، فانما اقترن ذلك بالامل فى ان تنتصر على هذه الفضيلة ، ولكنها لم تلبث - بعد قليل - ان وجدت فيه صرامة خلقية لم تذعن قط او تلين لها . وكانت كلما وجدت الفرصة ، تجهر بأكثر مما ينبغي - مما فى نفسها - لتستدرجه الى ان يبوح بما فى نفسه . وعلى نمط «اريسى» الرقيقة هذه ، لم تكن المواطنة بليز جد بعيدة عن الاعتقاد بان المرأة خليقة بأن تكون السباقة الى المصارحة ، فيما يتعلق بالحب !.. وكانت تقول لنفسها : « ان اشدهم حبا هم اكثرهم حياء ، فهم يحتاجون الى معونة وتشجيع . وانهم - الى ذلك - لمن السذاجة بحيث ان فى وسع المرأة ان تمهد نصف الطريق - بل اكثر - اليهم دون ان يلمحوا ذلك ، بأن تهيىء لهم مظاهر توحي اليهم بأنهم قاموا بهجوم جرىء ، وظفروا بالنصر فى الغزو ! » .. وهذا هو ما طمأنها الى مجرى الامور ، فقد كانت تدرك عن يقين - وما كان لديها شك بهذا الصدد كذلك - ان ايفاريست كان قبل ان تجعله الثورة بطلا ، قد أحب كأى انسان ، امرأة متواضعة ، كانت حارسة أبواب المعهد الفنى « الاكاديمى » !

ولكن « ايلودى » - التى لم تكن قط ساذجة - كانت تعرف انواعا مختلفة للحب . وكانت العاطفة التى اوحاها « ايفاريست » اليها من العمق بحيث جعلتها تفكر فى ان تربط حياتها به . كانت ميالة كل الميل الى الزواج منه ، لولا انها كانت تتوقع أن لا يقر ابوها ارتباط وحيدته بفنان مغمور ، فقير . فما كان « جاميلان » يمتلك شيئا ، بينما كان تاجر الصور قد جمع أموالا طائلة .. كان « لامور بانتر » يدر عليه الكثير ، وكان الاتجار فى الاوراق المالية

يدر عليه اكثر ، كما انه كان شريكا لاحد المتعهدين الذى كان يورد لفرسان الجمهورية التبن والشعير .

وموجز القول ان ابن بائع السكاكين بشـــارع (سان دومنيك) كان شخصية ضئيلة بالقياس الى ناشر الصور الذى كان معروفا فى اوربا بأسرها ، وكان معروفا بشخصه لدى أهل (بليزو) و (باســان) و (ديدو) بوجه خاص ، والذى كان يتردد على دارى المواطنين « ســان بيير » و « فلوريان » (٢٦) .. ولم تكن « ايلودى » سوى ابنـة مطيعة ، ومن ثم فانها كانت تحرص على موافقة ابيهـا كضرورة لزواجها . **وكان أبوها قد ترمل فى سن مبكرة ، كما كان سهل الخلق ، خفيف الروح ، كل همه الجـرى وراء الفتيات وادارة اعماله ، فلم يشغل قط بابنتـه ، بل انه تركها تنمو حرة ، دون ارشاد ، ودون صداقة** .. ولم يكن يشغل بمراقبة ابنته ، بل حرص على تجاهل مسلكها ، اذ كان يلمس فيها — وهو الخبير بالنساء — مزاجا حاميا ، ووسائل اخرى اقوى اغواء من الوجـه الجميل .. كانت اكرم من ان تتحفظ وتتحوط ، وأذكى من ان تضـل .. حكيمة فى نزواتها ، لم ينسها قط ميلها الى الحب شيئا من قواعد اللياقة الاجتماعية . وكان ابوها يعرف — ولا حـد لاغتباطه — هذه الفطنة .. ولما كانت قد أخذت عنـه ادراكه التجارى ، وذوقه فى الممارســة والعمل ، فانه لم يشغل بالدواعى الغامضة التى عاقت زواج فتاة لها هـذا النضج ، واستبقاها فى البيت ، حيث كانت تعدل ربة بيت وأربعة من المساعدين . وقد أحست — وهى فى السـابعة

---

(٢٦) جان بيير كلارى ذى فلوريان : ابن ابنة اخت فولتيــر ، برع فى كتابة الأساطير والقصص الخرافية ، واشتهر كرسام وشاعر وكاتب

والعشرين ـ بأنها قد بلغت من السن والتجربة ما يمكنهـــا من أن توجه حياتها بنفسها ، دون أن تعانى أية حاجة الى أن تطلب مشورة اب صغير السن متساهل مشغول البال عنها ، او الى أن تتبع أرادته . على أنه كان لزاما ـ لكى تتزوج من جاميلان ـ أن يهىء السيد بليز مستقبلا لهذا الصهر الفقير . فيشركه فى الدار ، ويكفل له اعمالا كما كان يكفل لكثير من الفنانين .. وقصارى القول ، أن يخلق له موارد بطريقــة أو بأخرى .. وهذا ما حدست استحالة أن يعرضه أحد الرجلين وأن يقبله الآخر ، لاسيما وانه لم يكن بين الرجلين سوى قدر ضئيل من التعاطف .

***

ولقد حيرت هذه العقبة « ايلودى » الرقيقــة ، العاقلة . فتمثلت ـ فى غير جزع ـ فكرة الارتباط بصاحبها بروابط سرية ، وأن تتخذ خالق الطبيعة شاهدا وحيدا على وفائهما المتبادل . **ولم تر فلسفتها ما يستحق الاستنكار فى اتحـاد كهذا ، كان الاستقلال الذى تعيش فيه يجعله ممكنا ، وكان خلق ايفاريست الأمين وفضائله تضفى عليه طمانينة وضمانا .** على أن جاميلان كان يجد عناء كبيرا فى أن يعول أمه العجوز ويقيم أودها ، ولم يكن فى حياة شـديدة الضيق ـ كهذه ـ مجال لغرام ، ولو تسنى تبسيطه الى مجرد علاقة طبيعية **(٢٧)** . فضلا عن أن جاميلان لم يكن قد باح بعد بعواطفه ، ولا افضى بنواياه .

وخالج الأمل الموطنــة بليز فى أن تضطره الى ذلك عمـا قريب . فما لبثت أن أوقفت كلا من تأملاتها وأبرتهـــا عن

---

(٢٧) المقصود هنا الزواج العرفى ، بدون قس او موثق .

الاسترسال ، وقالت : « ان هذا الوشـــاح لن يروق لى ـ أيها المواطن ايفاريست ـ الاذا راق لك أنت الآخر . فارجو أن ترسم لى نموذجا . وفى انتظاره سأنكث ما تم عملــه فى غيابك ، أسوة بما فعلت بنيلوبى ! » (٢٨) .

فأجاب فى حـرارة رزينة : « سأعكف على ذلك ايتهـــا المواطنة .. سأرسم لك حسام « أرموديوس » .. سـيفا فى اكليل من الزهور!» . واستل قلما ورسم سيوفا وزهورا بالأسلوب التجريدى الرصين الذى كان يحبه . وراح — فى الوقت ذاته — يشرح آراءه : « يجب على الفرنسيين — بعد أن بعثوا من جـــديد — أن يطرحوا عنهم كافة مخلفـــات الاستعباد : الذوق السقيم ، والتكوين السقيم ، والرســم السقيم .. لقد كان « واتو »، و «بوشيه» ، و «فراجونار» يعملون للطغاة وللعبيد ، فليس فى منتجاتهم لمحة من الأسلوب الطيب والرسم الطيب ، ولا أثر للطبيعة وللحقيقة .. انما فيها اقنعة ، ودمى ، واسماك ، وتقليد مضحك .. لسوف تحتقر الأجيال القادمة أعمالهم التافهة . ولن تمضى مائة سنة حتى تبلى لوحات « واتو » مهملة فى الأقبية ، ولسوف يغطى طلبة الرسم لوحات بوشيه بتجاربهم ومســـوداتهم فى سنة ١٨٩٣ . لقد فتح « دافيد » الطريق ، واتجه الى القديم ، ولكنه لم يصبح بعد بسيطا ، عظيما ، مجـردا ، بالقدر الكافى . ولا يزال لدى فنانينا كثير من الأسرار التى تتطلب دراسة ، فى نقوش الهيركولانوم ، وفى الرسوم الرومانية البارزة ، وفى زخارف الآنية الشرقية » .

---

(٢٨) فى الأساطير الاغريقية ان « بنيلوبى » تكاثر عليها الخطاب ، بعد أن غاب زوجها «اوليس » عشرين عاما . ولتتخلص منهم استمهلتهم حتى تفرغ من سجادة كانت تنسجها . وراحت بالليل تنقض ما نسجته بالنهار . فصار مثلا لوفاء الزوجة .

وتكلم طويلا عن الجمال القديم ، ثم عاد الى «فراجونار»، فذكره فى مقت مشبوب : « أفتعرفينه ايتها المواطنة ؟ » . فأومأت « ايلودى » أن نعم ..

ــ وانك لتعرفين كذلك « جريز » الشيخ الذى يعتبر ــ بلا شك ــ مضحكا بسترته القرمزية وسيفه ! .. ولكنه اذا قيس بفراجونار ، بدا فى مظهر حكماء الاغريق .. لقد التقيت ــ منذ مدة ــ بهذا الكهل التعس ، وهو يتمشى الهوينا تحت أقواس قصر المساواة ، وقد نثر « البودرة » على شعره ، وبدا أنيقا ، مرتعش الأطراف ، مغرورا ، بشعا .. وازاء هذا المنظر ، تمنيت لو أن أحد أصدقاء الفن الاقوياء اقتدى بأبولو ، فعلقه الى احدى الاشجار ، وسلخه ــ كما سلخ مارسياس ــ ليكون عبرة خالدة للرسامين المسيئين !

ورمقته « ايلودى » بنظرة ثابتة من عينيها المرحتين العابثتين ، وقالت : « انك لتعرف الكراهية ياسيد جاميلان، فهل يؤخذ من هذا انك تعرف الــ ... ؟ ! »

ــ اهذا انت ياجاميلان ؟

انبعث بهذا السؤال صوت جهورى .. صوت المواطن بليز الذى كان قد دخل حانوته، وحذاءاه يصرفان، ورصيعة سلسلة ساعته تصلصل ، وذيل سترته يرفرف ، وقد ارتدى قبعة سوداء كبيرة ، تصل حوافها الى كتفيه !

***

وحملت « ايلودى » سلتها ، وصعدت الى غرفتها . بينما قال المواطن بليز: « وبعد ياجاميلان !.. هل أحضرت لى شيئا جديدا ؟ »

فقال الرسام : « ربما ! » .. وراح يعرض فكرته : « ان

الآلهة عطشى !

أوراق اللعب عندنا تناقض وضعنا الأدبى تناقضا مذهلا . فان اسمى « الفاليـه » و « الروا » يخدشـان أذنى أى وطنى . ولقـد ابتكرت وأعددت مجموعة من أوراق اللعب الثورية الجديدة : يستعاض فيها عن بطاقات « الفاليـه » و « الروا » و « الدام » ببطاقات الحـرية والمسـاواة والآخاء .. أمـا « الآس » فيحـاط ببـاقات ويسمى « القانون » .. فنقـول « حرية سـباتي » ، و « مساواة بستونى » و « أخاء دينـارى » ، و « قانون قلب » ! .. واعتقد أن هذه البطاقات رسمت بمهارة رائعة ، فانى انتوى أن اعمل على أن يحفرها «ديماهى» حفرا دقيقا ، وان احصل على اذن بنشرها » .

واخرج الرسام من حافظته بعض صـور كاملة بالألوان المـائية ، وبسطها الى تاجـر الصـور . ولكن المواطن بليز رفض ان يتناولها ، وأشاح عنها قائلا : « أحمـل هـذه ياصفيرى الى المؤتمر ، الذى سيكرمك فى جلسته . ولكن، لاتطمع قط فى أن تحصل على « سول » (٢٩) واحد من ابتكارك الجديد ، الذى ليس جديدا ! .. لقد كنت جـد متأخر فى يقظتك ، فان مجموعة ورق اللعب الثـورية التى ابتكرتها هى ثالث مجموعة أحضرت الى . لقد عرض على زميلك « دوجور » — فى الأسبوع المـاضى — مجمـوعة من ورق اللعب بها اربع بطاقات « عبقرية » ، وأربع « حرية »، وأربع « مساواة » .. واقترحت علي مجموعة أخرى فيهـا حكماء وشجعان و« كاتو » و « روسو » و « هانيبـال » ، ومن لا أدرى غيرهم ! وكانت هـذه المجمـوعة تمتاز على مجموعتك ياصديقى ، بأنهـا مرسـومة بخطوط غليظة ،

---

(٢٩) السول : جزء من عشرين من الفرنك .

ومحفورة بالسكين على الخشب . ما اقل معرفتك بالرجال حتى تعتقــد ان اللاعبين يستعملون اوراقا رسمت على طريقة ((داڤيد)) ، وحفرت على طريقة ((بارتولوتزى)) !..



((.. لو انك زخرفت وشاحك هذا بزخرفة اغريقية

(ص ٤٣)

وانه لوهم غريب ـ كذلك ـ أن تعتقد انه لابد من طريقة كهذه لتعديل أوراق اللعب القديمة وفقا للآراء الحالية . ان « السانكيلوت » قد صححوا الأوضاع غير الوطنية من تلقاء انفسهم ، بأن أطلقوا اسم « الطاغية ! » ، أو « الخنزير السمين » (٣٠) ، وانهم ليستعملون اوراق اللعب المطوية الأطراف ، القديمة ، دون أن يشتروا سواها .. ان أعظم استهلاك لأوراق اللعب يحدث فى مباءات قصر المساواة ، فأنصحك أن تذهب الى هناك ، وأن تعرض على اللاعبين والمشرفين بطاقاتك الممثلة للحرية ، والمساواة ، و .. ماذا سميتها «قانون قلب» . ثم تعال فقل لى كيف استقبلوك!»

وجلس المواطن « بليز » الى طاولة تسلم النقود ، وجعل ينقر بأصابعه سرواله الاصفر ، لينفض عنه ذرات من التبغ ، ثم قال وهو يرمق جاميلان فى عطف لطيف : « اسمح لى أن أقدم لك نصيحة أيها المواطن الرسام : اذا شئت أن تكسب عيشك فدع عنك أوراق اللعب الوطنية ، وآلهتك المنتقمة التى تطارد الجريمة ، وعباقرة الحرية ، وارسم لى غيدا حسانا . **ان حمية المواطنين نحو التجديد تفتر مع الزمن والرجال يحبون النساء دائما . فارسم لى نساء متوردات اللون ، ذوات أقدام دقيقة ، وأكف صغيرة .** وضع نصب عينيك أن أحدا لم يعد يهتم بالثورة ، ولم يعد هناك من يرغب فى سماع ذكرها ! »

واذا جاميلان يقفز من مكانه فجأة ، صائحا : « ماذا ! .. لم يعودوا يسمعون ذكر الثورة ! .. كيف تقول هذا واقرار الحرية ، وانتصارات جيوشنا ، والقصاص من

---

(٣٠) المقصود انهم أطلقوا هذين الإسمين على الملك ، وبالتالى على بطاقة « الروا » فى ورق اللعب .

الطغاة .. كلها أحداث ستدهش ابعد الأجيال القادمة عن عصرنا ؟ .. كيف لم يتسن أن نهزم فى كل هـــذه ؟ .. ماذا ! .. ان طائفة الثائر يسوع تقوم منــذ ثمانيـــة عشر قرنا ، فكيف يقال ان عقيدة الحرية ستمحى ولمـا تنقض أربع سنوات على قيامها ! »

ولكن « جان بليز » قال فى شعور بالتعالى والتفوق: «انك تعيش فى حلم ياصديقى ، أما أنا فأعيش فى الحياة .. صدقنى باصــاحبى ، فان الثـــورة معجزة ، وقــد مكثت أكثر مما ينبغى .. خمس سنوات من التحمس ، خمس ســنوات من العنــاق والفــرح ، ومن المذابح ، ومن الخطب ، ومن « المــارسلييز » ، ومن دق النواقيس لاستنفار القــوم ، ومن الارستقراطيين المعلقين على أعمدة المصـــابيح ، ومن الرؤوس المحملة على الحراب ، ومن النساء على الجياد التى تجر المدافع ، ومن أشجار الحرية تعلوها القلنسوة الحمراء، ومن الفتيات والشيوخ يساقون فى ثياب بيضاء فى عربات الزهور ، ومن السجن ، ومن المقصلة ، ومن تجديد المؤن ، ومن المنشورات ، ومن الشعارات ، ومن المنصــات ، ومن السيوف ، ومن « الكارمانيولات » .. انها لقائمة طويلة ! ثم أن القوم بدأوا يفطنون الى أنهم لا يفهمون شيئا . لقــد رأينــا أكثر مما ينبغى من هؤلاء المواطنين الكبار الذين لم تقولوهم الى (الكابيتول) الا لتلقوا بهم بعــد ذلك من أعلى صخرة (تاربيينى) (٣١) ، أمثال نيكر ، وميرابو ، ولافاييت ،

---

(٣١) الكابيتول معبد للرب « جوبيتر » وحصن أقامه الرومان على جبل (كابيتولان) أو (تاربينى) ، أحد الاعمدة السبعة التى قامت عليها (روما). وكان الرومان يكرمون الابطال فى المعبد ، ويلقون الخونة من فوق صـــخرة (تاربيينى) القريبة منه . فالعبارة اشارة الى أن الفرنسيين كانوا لايلبثون ان يهدموا الزعماء الذين يرفعونهم .

ويلى ، وبيتون ، ومانويل ، وكثير سواهم ! .. ومن يدرينا انكم لم تعدوا المصير ذاته لابطالكم الجدد ؟ .. لم يعد أحد يدرى .. »

فقال جاميلان بلهجة ردت تاجر الصور الى صوابه: «اذكر اسماءهم أيها المواطن بليز . اذكر اسماء هؤلاء الأبطال الذين نعدهم للتضحية ! » .. فبادر بليز قائلا ، وقد وضع يده على قلبه : « **انني جمهوري ووطني .. انني أفوقك تحمسا للجمهورية ، كما انني أكثر منك وطنية ، أيها المواطن ايفاريست جاميلان . ولست أرتاب فى وطنيتك ، ولاأتهمك بشيء من المروق** . ولكن .. اعلم أن وطنيتي واخلاصى للصالح العام تشهد بهما أعمال كثيرة . أما مبادئى ، فهذه هى : انني أضع ثقتى فى كل فرد قادر على خدمة الأمة . وانى لأنحنى أمام الرجال الذين يختارهم الرأى العام للمهمة الخطيرة ، مهمة السلطة التشريعية ، مثل مارا ، ومثل روبسبيير . وانى لعلى استعداد لأن أعاونهم فى نطاق وسائلى البسيطة ، وأن أقدم لهم الجهود المتواضعة التى يستطيعها المواطن الصالح . وان اللجان لتشهد على حماسى وعلى ولائى . فبالاشتراك مع وطنيين صادقين ، وفرت الشعير والعلف لفرساننا البواسل ، والأحذية لجنودنا . وقد أرسلت — فى هذا اليوم بالذات — ستين ثورا الى (فيرنون) لجيشنا فى (ميدى) ، عبر بلاد موبوءة بقاطعى الطرق ، ومغلوبة امام بعثات « بيت » و « كونديه » . انني لا أتكلم، وانما أعمل ! »

واعاد «جاميلان» الصور ذات الألوان المائية بهدوء الى حافظته ، التى عقد أربطتها ثم دسها تحت أبطه ، وقال وهو يصر على أسنانه : « انه لتناقض غريب أن يساعد امرؤ

جنودنا على أن يحملوا فى عرض الدنيا وطولها هذه الحرية التى يخونها فى موطن اقامته ، اذ يبث الاضطراب والقلق فى نفوس المدافعين عنها .. سلاما أيها المواطن بليز ! »

***

وقبل أن يعرج الى الزقاق الممتد بطول معهـــد الخطابة والبيان ، التفت جاميلان ــ وقلبه مفعم بالحب وبالسخط ــ ليلقى نظرة على القرنفلات الحمراء المزدهرة على حافة نافذة معينة ..

وما قطع الشاب رجاءه فى نجاة وطنه .. بل كان من جراء عدم وطنية «جان بليز» أن راح جاميلان يزن ايمانه الثورى. **وألفى لزاما عليه ان يعترف بأن هذا التاجر لم يكن بلا أسباب ظاهرة ، اذ زعم أن أهل باريس لم يعودوا مهتمين بالأحداث. فوا أسفاه !** .. كان من المؤكد ــ كل التأكيد ــ أن الحماس الذى تجلى فى الساعة الأولى ، قد أعقبه عدم اكتراث عام.. فلن ترى ثانية تلك الجموع التى كانت تحتشد فى سنة ١٧٨٩ ، ولن ترى مرة أخــرى تلك الملايين المنســجمة التى كانت تتزاحم ــ فى سنة ١٧٩٠ ــ حول المذبح الذى أقسم عنده المتحــدون (٣٢) .. لا بأس ! ان المواطنين الصــالحين لن يلبثوا أن يضاعفوا الحمية والحماس ، وأن يوقظوا الشعب الوسنان ، بأن يخيروه بين الحرية والموت !

هكذا راح « جاميلان » يفكر ، وطيف « ايلودى » يعزز روحه المعنوية . فلما وصل الى منطقة الميناء، أبصر الشمس

(٣٢) اقيم فى ١٤ يوليو ١٧٩٠ احتفال عظيم ، لمرور عام علــى سقوط الباستيل . وهناك وجد النواب الجدد لثلاث وثمانين دائرة ، أن ٦٠٠٠٠٠ من الشعب جاءوا يؤازرونهم فى تأييد الدســـتور الجديد . وحضر لويس السادس عشر الاحتفال ، واقسم على صيانة هذا الدستور .

تنحدر عند الأفق ، تحت سحب ثقال ، شبيهة بجبال من حمم متأججة .. وكانت سقوف المدينة تسبح فى ضوء ذهبى ، وزجاج النوافذ يعكس وميضا متألقا . فتمثلت لخيال جاميلان رؤى «التيتان» (٣٣) ، وقد انقضت عليهم الصواعق فأحالتهم حديدا محميا .. واطلال العوالم القديمة المضطرمة .. و (ديسه) مدينة النحاس الأحمر !

واذ لم يكن يملك لقمة واحدة لأمه ولنفسه ، فقد راح يحلم بالجلوس الى المائدة التى لا نهاية لها ، التى يدعى اليها الكون وتجلس اليها البشرية بعد بعثها وتجددها . وفى انتظار يوم هذه المائدة ، راح يقنع نفسه بان الوطن أم رؤوم تطعم ابناءها البررة . وكافح — فى ذهنه — سخريات تاجر الصور ، واخذ يحث نفسه على الايمان بأن فكرته بصور أوراق اللعب الثورية كانت جديدة وصالحة ، وان بطاقاته المصورة ، الملونة ، لن تلبث أن تحرز نجاحا كبيرا ، وان الثروة فى متناوله حقا . ومضى يقول لنفسه : « لسوف يحفر ديماهى البطاقات ، وسنتولى بنفسينا طبع ونشر اللعبة الوطنية الجديدة ، وكلنا ثقة من بيع عشرة آلاف — بسعر عشرين « سول » للواحدة — فى بحر شهر واحد ! »

وفى تلهفه على تحقيق هذا المشروع ، يمم صوب ضفة (لافيران) ، حيث كان « ديماهى » يقيم ، فوق حانوت تاجر للزجاج . ودخل عن طريق المتجر ، فأنبأه تاجر الزجاج بأن المواطن «ديماهى» لم يكن فى مسكنه . ولم يثر هذا كثير دهشة لدى الرسام ، اذ كان يعرف أن صديقه أوتى

(٣٣) فى الأساطير أن « التيتان » كانوا شعبا خليطا من أبناء السماء والأرض ، تمردوا على الآلهة ، وحاولوا ان يرقوا الى السماء ، بوضع جبل فوق جبل . ولكن « جوبيتر » صعقهم . ويتخذون — فى الأدب — رمزا لمن يحاولون تحقيق مشروعات مستحيلة .

ميلا الى التشرد والانحلال .. انما الذى كان يدهشه حقا ، هو أن يستطيع امرؤ مثـــله ان يحفر كثيرا من الصــور ، وبمثل مهارته ، برغم قلة مثابرته على العمل . ورأى جاميلان أن ينتظر صاحبه هنيهة ، فقدمت اليه زوجة تاجر الزجاج مقعدا . وكانت امرأة نكدة ، راحت تشـكو الأحـوال التى كانت قد ساءت بالرغم مما قيل من أن الثورة قد أغنت تجار الزجاج ٪ بما حطمت من نوافذ !

وأرخى الليل سدوله ، فاستأذن جاميلان زوجة تاجـر الزجاج فى الانصراف ، وقد عدل عن انتظار زميله . وفيما كان يجتاز الجسر الجديد (بون ـ نيف) ، رأى فريقـا من الحرس الوطنى مقبلين من رصفة (مورفوندى) ، وقد امتطوا الخيل ، وأمسكوا بالمشاعل ، وراحوا يفسحون طريقا بين المـارة ، وقد انبعثت من سيوفهم صلصلة عاليـة ، وهم يرافقون عربة صغيرة كانت تقل ـ ببطء ـ الى المقصـلة رجلا لم يكن ثمة من يعرف اسمه .. كان أحد الأشراف السابقين ، وكان أول من قضت عليه المحـكمة الثـورية الجديدة بالاعدام . وكان يرى بعناء بين قبعات الحرس ، وقد جلس ويداه معقودتان خلف ظهره ، ورأسه عار يتأرجح . ووجهه نحو مؤخرة العربة .. والجلاد يستوى واقفا على مقربة منه ، وقد اتكأ على سياج العربة .. وكان المـارة يقفون عن السير ، ويقولون فيما بينهم انه ـ ولا بد ـ أحد الذين كانوا يجيعون الشعب ٪ فيرمقونه فى غير احتفال .

واذ اقترب جاميلان ، تبين ((ديماهى)) بين النظارة ، وهو يزاحم الحشد ، ويحاول ان يشق طريقا خلال الموكب . فناداه ، ووضع يده على كتفه . والتفت اليه ((ديماهى))، فاذا هو شاب جميل ، قوى .. قبل فى معهد الفنـون ـ

يوما ــ ان له راس « باكوس » (٣٤) على جسد هرقل . وكان أصدقاؤه يسمونه « باربارو » لشبهه بهذا النائب من نواب الشعب .

وقال له جاميلان : « تعال ، فاني أريد أن أحدثك فى مسألة هامة ! » . ولكن ديماهى أجاب فى عنف : « دعنى ! » . وألقى ببضع كلمات غير مسموعة ، وهو يتعجل لحظة الاندفاع بين الحشد : « اننى أتعقب امرأة من السماء ، ذات قبعة من القش .. انها من العاملات فى احدى دور الازياء ، ولها شعر أصفر مسترسل على ظهرها .. لقد فصلتنى عنها هذه العربة اللعينة .. لقد سبقتنى الفتاة ، وهى الآن عند نهاية الجسر ! »

وحاول جاميلان أن يتشبث بسترته ، مقسما أن الأمر الذى كان لديه هاما . ولكن ديماهى كان قد أفلت منه بين الجياد والحرس والسيوف والمشاعل ، وانطلق فى اثر الآنسة المشتغلة بالأزياء !

---

(٣٤) باكوس اله الخمر عند الرومان .

الفصل الرابع



• **كانت** الساعة العاشرة صباحاً ، وشمس شـــهر ابريل تغمر بالضوء أوراق الأشجار الفضة .. وشاعت فى الهواء عذوبة رقيقة ، بعد أن نقته الزوبعة ـ التى هبت بالليل ـ من أوشابه . وبين فترات طويلة ، كان أحد الفرسان يمر فى درب الأرامل (آليه ديه فيف) ، فيبدد السكون الموحش. وعلى حافـة الدرب الظليلة ـ فى مواجهـــة كوخ « ليلواز الحسناء » ـ راح « ايفاريست » ينتظر « ايلودى » ، على مقعد خشبى . ولم يكن قد عاد الى « لامور بانتر » منـــذ اليوم الذى التقت فيه أصابعهما على قمـاش الوشـــاح ، وامتزجت فيه أنفاسهما . **اذ أن كبرياءه ـ التى كانت تتحدى كل ألم ـ وحياءه الذى كان يزداد جموحا باستمرار ، ابقياه**

بمناى عن ((ايلودى)) . ولقــد كتب لهــا خطابا رزينـا ، حزينا ، حارا ، عبر فيه عن الأمور التى ساءته من المواطن « بليز » ، واعلن ـ وهو يكتم هواه ، ويتحاشى ذكر لوعته ـ عزمه على أن لا يعود الى متجر الصور . وأبدى فى تنفيـذ هذا العزم حزما فوق ما تحتمله او تقره أية عاشقة !

على أن « ايلودى » كانت ذات طبيعة على النقيض من هذا ، وكانت حريصة على ان تذود عن مصلحتهـا فى كل المناسبات ، ومن ثم فانهـا عكفت لفورهـا على التفكير فى استعادة صاحبها . ولقد خطر لهـا أن تذهب فتزوره فى مسكنه ... فى المرسم القائم فى ميدان (تيونفيل) . ولكنهـا كانت تدرك انه ذا مزاج آس ، وقد حدست من خطابه أن نفسه مهتاجة ، ولكنها خشيت أن يبسط سخطه على الأب فيلف به الابنة ، وأن يكون رأيه قد استقر على ان لا يراها ثانية ، فرأت أن من الأفضل ان تتيح له لقاء عاطفيا شاعريا لا يستطيع فيه أن يتملص من رؤيتها ، بل يتسع لها الوقت ـ خلاله ـ لاغرائه وارضائه ، وتتآمر معها ـ فيه ـ العزلة على فتنته والتغلب عليه .

وكانت الحدائق الانجليزية جميعا ـ لا سيما المتنزهـات الحديثة ـ تضم فى تلك الأيام أكواخا أقامها أساتذة فى فن المعمار ، لتستهوى ما فى نفوس سكان المدن من نزوات فطرية برية . فكان كوخ « ليلواز الحسناء » ـ الذى شغله بائع لشراب الليمون ـ يقوم بمظهره المتواضع على أطلال حصن قديم ، قلدت بمهارة فنية ، بحيث امتزجت فى شكله فتنة الريف وكآبة الاطلال . وكانما لم يكن يكفى لاثارة النفوس الحساسة مرأى كوخ وحصن متهـدم ، فأقام بائع شراب الليمون قبرا تحت صفصافة ، وعمودا تعلوه احدى الجرار

الجنائزية وقد نقش عليها : « من كْليونيس الى حبيبها الوفى آزور » ! .. **أكواخ ، وأطــلال ، وقبــور .. لقــد اقامت الارستقراطية ــ قبل هلاكها ــ فى المتنزهات الموروثة هذه الرمــوز التى تنم عن البؤس ، والفنـــاء ، والمـوت ! ..**
وقــد أصبح سكان المدن الوطنيــون يستطيبــون الشراب والرقص وتطارح الحب فى هذه الأكواخ الزائفة ، وفى ظلال دهاليز زائفة أصطنع فيها البلى والتهدم ، وبين قبـــور زائفة .. فلقد كانوا سواء فى حب الطبيعة والتتلمـذ على «جان ــ جاك» ، وكانوا سواء اذ أوتو قلوبا مرهفة الحس، مفعمة بالفلسفة !

***

ولمــا كان « ايفاريست » قد وصل الى الملتقى قبل الموعد المحدد ، فانه راح ينتظر ، وكأنما كان قلبه بندول ســاعة يحصى الدقائق بخفقاته .. ومرت شرذمة من الجند تسوق بعض المسجونين . وبعد عشر دقائق ، تسللت الى الكـوخ امرأة فى ثياب كلها وردية اللون ، وقد حملت فى يدها باقة من الزهــر ــ على مألوف العـــادة اذ ذاك ــ وفارس ذو قلنسوة ثلاثية الأركان ، وسترة حمراء ، وصديرى وسروال مخططين . **وكانا يبدوان معا على نسق عشاق العهد الماضي، مما كان يوحى ــ مصداقا لقول المواطن بليز ــ بأن ثمــة طباعا فى بعض النفوس ، لم تبدل الثورة منها شيئا البتة !**
وبعد لحظات أخرى ، أقبلت من (روبى) أو من (سان كلو) امرأة عجوز ، حملت على ساعدها صندوقا أسطوانيــا ، طلى بألوان زاهية . فجلست على المقعد العريض الذى كان جاميلان يجلس عليه منتظرا . ووضعت أمامها صندوقها الذي كان غطاؤه يحمل ابرة متحــركة ، تشــير الى السلع

التي تستخرج من جوفه . فقد كانت العجوز المسكينة تبيع الحظ لصغار الأطفال ، في الحدائق . كانت تتجر في « الحظوظ المشتهاة » ، وهو اسم جديد أطلق على نوع قديم من الحلوى ؛ كان يسمى منذ عهد لا سبيل الى تذكره بـ « النسيان » .. وسواء لأن اسم « النسيان » يوحي بغضاضة الفناء ومرور العمر ، أو لأن الاهواء قد تقلبت ، فان « النسيان » أصبح يسمى « الحظ المشتهى » !

ومسحت العجوز العرق عن جبينها بطرف من مرولتها، ثم رفعت رأسها تنفث شكاواها للسماء ، متهمة الله بالظلم اذ جعل الحياة عسيرة على مخلوقاته . فقد كان زوجها حارسا لموقع لصيد السمك في (سان كلو)، على ضفة النهر. **وكانت هي تفد - في كل يوم - الى (الشانزليزيه) تدق صندوقها بعصاتها وتنادي : « هاهي ذي الحظوظ المشتهاة ياسيداتي ! » ... وما كان الزوجان ليحصلا من كل هذا العمل على ما يقيم أودهما في شيخوختهما .**

واذ أنست من الشاب - الذي كان يجاورها على المقعد - ميلا الى سماع شكواها ؛ اسهبت في شرح علة شقائها .. تلك هي الجمهورية التي حرمت الفقراء من لقمة العيش ، حين جردت الأغنياء من ثرواتهم . ولم يك ثمة ما يدعو للأمل في تحسن الأحوال ، بل ان العجوز كانت ترى - من بعض الشواهد - ان الأمور لم تكن تسير الا من سيء الى أسوأ . ففي (نانتير) ولد طفل وله راس أفعى ، وانقضت الصاعقة على كنيسة (رويي) فصهرت الصليب الذي يعلو برج الجرس ، وشوهد ذئب مسعور في غابة (شافيل) ..

كما أن رجالا ملثمين سمموا موارد المـاء ، ونثروا فى الهواء مساحيق تجلب الأمراض (٣٥) ..

***

ورأى ايفاريست « ايلودى » تثب من مربـة ، فجـرى نحوها . وكانت عينا الشابة تلمعان فى الظل الرقيق الذى القته عليهما حواف قبعتها المصنوعة من القش .. والشفتان تبتسمان ، وهما أكثر حمرة من القرنفلات التى أمسكتهـا بيدها . وعلى صدرها تقاطع طرفا وشاح أسود ، ليلتقيا فى عقدة على الظهر . وكان ثوبها الأصفر يشف عن حركات الركبتين السريعة ، وينحسر عن القـدمين اللتين انتعلتا حذاءين مبسوطى النعلين (بلا كعبين !) . وكان الفخـذان متحررين — تقريبا — من قيود الثوب ، اذ أن الثورة كانت قد حررت ازياء المواطنات ، بينما كانت « الجونلة » تنتفخ فوق الردفين ، فتموه شكلهما اذ تضاعف من حجميهما ، وتخفى الحقيقة اذ تصورها مضخمة !

ود ان يتكلم ، فاستعصت عليه الكلمات ، ولام نفسـه على هذا الارتباك الذى كانت « ايلودى » تفضله على أرق ترحاب .. ولاحظت انه كان قد عقـد رباط رقبته بأناقة تفوق ما اعتاد ، فاستبشرت بهذه البادرة . وبسطت اليه يدها قائلة : « لقد اردت ان أراك لأتحدث اليك . اننى لم أرد عن خطابك ، اذ انه ساءنى ، ولم أعثر فيه على شىء من نفسك .. ولو انه كان طبيعيا ، لجاء اكثر لطفا مما هو . وانه لمن الاساءة الى شخصيتك والى روحك أن تفكـر فى

(٣٥) كانت الشائعات الخرافية ، التى تصادف موقعا من نفوس الجهلاء السذج ، سلاحا من الاسلحة التي استغلها اعداء الثورة .

العزوف عن الرغبة فى العودة الى التردد على« لامور باتتر »، لمجرد أنك صادقت خلافا بسيطا فى السياسة مع رجـل يكبرك سنا بكثير . الا ثق من انه ليس لك أن تخشى البتة أن يسىء أبى استقبالك ، اذا ما جئت لتزورنا . **انك لاتعرفه، فهـو لايذكر ما قاله لك ، ولا ما رددت به عليـه . ولست اجزم بأن ثمة تعاطفا قويا بينكما ، ولكنه لا يكن لك موجدة، وأصارحك بانه لا يشـغل كثيرا بك .. ولا بى أنا ، فهو لا يفكر الا فى شؤونه وملذاته ! »**

وسارت على مهل نحو الاشجار المتكاثفة حول الكوخ فتبعها على شىء من المضض ، اذ كان يعلم أن هناك ملتقى العشاق الذين يشترون الهوى والعاشقات اللائى يبعنه ومرتع الحب العابر . واختارت الشابة مائدة كانت أكثر الموائد تواريا عن الانظار ..

ـ ما أكثر ما لـدى من أشـياء أريد أن أقولهـا لك ياايفاريست ! .. ان للصداقة حقوقا ، فهل تسمح لى بأن أفيد منها ؟ .. لسوف أتحدث اليك كثيرا عن نفسك ، وقليلا عن نفسى » اذا راق لك ذلك !

وكان بائع شراب الليمون قد أحضر قنينـة وكوبين فصبت الشراب بنفسها فى مهـارة ربة البيت ، ثم راحت تروى له قصة طفولتها .. وحدثته عن جمال أمهـا التى كانت تحب أن تستعيد ذكراها بحكم عاطفة البنوة ، ولأنها كانت مصدر جمالها الشخصى .. واطنبت فى وصف بأس أجدادها وشهامتهم ، اذ كانت تعتز بدمها « البورجوازى » وحكت كيف فقدت تلك الأم الرائعة ـ وهى فى السادسة عشرة ـ فأصبحت تعيش بلا حنـان وبلا نصير . فكونت

نفسها بنفسها لتصبح على ما كانت عليه : نشيطة مرهفة الحس ، شجاعة .

واردفت قائلة : « لقد قضيت يا ايفاريست صباى فى جو حزين موحش الى الدرجة التى مكنتنى من أن أعرف قيمة قلب مثل قلبك . وأصارحك بأننى لن أتخلى من تلقاء نفسى ، ولا دون نضال ، عن عطف ظننت ان لى أن أعول عليه ، وكنت أعتز به ! »

فرمقها ايفاريست بحنان ، وقال : « أمن الممكن حقا — يا ايلودى — أن أكون شيئا يذكر لديك ؟ .. هل لى أن اعتقد هذا .. ؟ » . وامسك خشية أن يجمح به القول ، فيسىء الى صداقة وثيقة كهذه . فمدت اليه يدا صغيرة عارية ، خرجت — الى منتصف الساعد — من كمين طويلين ضيقين مزدانين بـ « الدانتيلا » ، وقد ارتفع صدرها فى انفاس طويلة . وقالت : « أنسب الى يا ايفاريست كل العواطف التى تبغى أن تكون لدى نحوك ، ولن تكون مخدوعا فى ميول قلبى ! »

— ايلودى ، ايلودى ! .. اصحيح هذا الذى قلت ؟ .. هل ترددينه ثانية اذا عرفت .. ؟

وامسك مترددا ، فغضت بصرها .. وأكمل عبارته بصوت خفيض : « .. اننى أحبك ؟ »

وتضرج وجهها عند سماع هذه الكلمات الأخيرة ، فقد كانت عذبة . وبينما طفحت عيناها بنشوة حنون ، طفت — على الرغم منها — ابتسامة ساخرة رفعت ركنا من شفتيها . وقالت لنفسها : « كأنه يظن أنه الأسبق الى البوح ؟ ! .. لعله يخشى ان يكون قد اغضبنى ! »

وقالت له فى ترفق : « الم لى اذن ياصديقى اننى .. احببتك ؟ »

وخيل اليهما أن ليس فى العالم سواهما . وفى غمرة النشوة ، رفع ايفاريست عينيه صوب السماء المتألقة بالنور والزرقة الصافية ، وهتف : « انظرى ! ان السماء ترقبنا ! .. انها لفاتنة وعطوف مثلك ، يا أعز حبيبة ! .. ان لها اشراقك ، ولطفك ، وابتسامتك ! »

وأحس بأنه قد امتزج بالطبيعة كلها ، فأشركها معه فى حبوره وتوفيقه . وبدا لعينيه أن زهور الكستناء كانت تشتعل كالشموع ، وأن أشجار الحور كانت تتأجج كمشاعل سامقة ، لتحتفل بخطبتهما .

وانتشى اغتباطا بنفوذه وعظمته . أما هى فقد أسلمت نفسها للضعف ، اذ كانت بطبعها اكثر رقة ونعومة وليونة وانقيادا . وما أن رأته ينهزم ، حتى خضعت له .. **وبعد أن جعلته تحت سلطانها ، جعلت منه السيد والبطل والاله، وراحت تتحرق شوقا الى أن تطيعه ، وأن تتعبد اليه ، وأن تقدم له نفسها . وفى ظلال الخميلة ، منحته قبلة طويلة ، ملتهبة ، مالت برأسها تحت وطأتها .. وبين ذراعى ايفاريست أحست بجسدها ينصهر عن آخره ، وكأنه شمع !**

ومكثا طويلا فى شغل بنفسيهما عن الكون كله . وراح ايفاريست يشرح ــ بوجه خاص ــ آراءه التى كانت خالصة نقية ، ومبهمة فى آن واحد ، والتى القت ايلودى فى أحضان الحيرة .. أما « ايلودى » ــ من ناحيتها ــ فقد تحدثت عن اشياء رقيقة ، نافعة ، وذات طابع شخصى . حتى اذا قدرت أن ليس بوسعها أن تمكث أكثر من ذلك ، نهضت فى عزم ،

فأعطت حبيبها القرنفلات الحمراء الثلاث ، التى تنمو فى نافذتها ، وقفزت برشاقة الى العربة التى كانت قد جاءت بها . وكانت عربة من عربات الأجرة ، مطلية باللون الأصفر، ومرتفعة جدا فوق العجلات . ولم يكن فيها ما يستغرب اللهم الا الحوذى . ولكن جاميلان لم يكن قد اعتاد — هو ومن كانوا يحيطون به — ركوب العربات . فما أن رأى العربة تجرى على عجلاتها ، حتى تولى قلبه انقباض ؛ وأحس بشعور محزن يستبد به ، وبنوع من الهوس العقلى. خيل اليه أن حصان العربة كان يقل « ايلودى » من حيث الواقع والحاضر ، منطلقا بها الى مدينة غنية طروب ، والى مساكن مترفة مفعمة بالمباهج ، لن يقدر له هو ان ينفذ اليها قط !

***

واختفت العربة ، فهدأ اضطراب ايفاريست ، وان بقيت فى نفسه لوعة حادة . وشعر بأن الساعات المفعمة بالحنان والسلوى التى عاشها ، لن يقدر له أن ينعم بمثلها ثانية . وانطلق خلال (الشانزليزيه) ، حيث كانت النسوة يجلسن على مقاعد من الخشب ، وهن فى أثواب خفيفة ، يتجاذبن أطراف الحديث ، بينما كان أطفالهن يلعبون تحت الاشجار. **وصادف امرأة تبيع حلوى « الحظوظ المشتهاة » ، وقد حملت صندوقا على هيئة الطبل ، فذكرته ببائعة الحلوى التى صادفها فى درب الأرامل (آلليه ديه فيف) ، وخيل اليه أن دهرا من حياته قد انقضى بين المصادفتين .**

وعبر ميدان الثورة .. وفى حدائق (التويلرى) سمع الضجيج الهائل المألوف فى الايام الحافلة بالاحداث ، ينبعث من بعيد .. تلك الاصوات المتصاعدة فى اجماع ،

والتى كان أعداء الثورة يزعمون أنها ستقضى على نفسها بنفسها ، فلا تقوم لها قائمة قط . وغذ الخطى نحو الصخب المتضاعف . حتى بلغ شارع (أونوريه) ، فألفاه زاخرا بحشد من الرجال والنساء ، الذين كانوا يهتفون : « الحياة للجمهورية . . الحياة للحرية ! » . وكانت أسوار الحدائق ، والنوافذ، والشرفات، وسطوح المنازل، غاصة بالنظارةالذين راحوا يلوحون بالقبعات وبالمناديل . وكان ثمة جندى يفسح طريقا للموكب الذى ضم موظفى البلدية ، والحرس الوطنى، والمدفعية ، والشرطة ، والفرسان ، وقد التفوا حول رجل كان يتقدم ببطء على رؤوس المواطنين .. رجل أصفر الوجه ، طوق جبينه تاج من زهور أشجار السنديان ، وقد التف جسده فى عباءة قديمة خضراء ، ذات ياقة من فراء السمور . وكانت النساء يرمينه بالازهار ، وهو يجيل حوله نظرات ثاقبة من عينيه الصفراوين ، كما لو كان يبحث — فى هذا الحشد المتحمس — عن مزيد من أعداء الشعب ليفضحهم ، ومن الخونة ليسوقهم للعقاب . **وعندما مر بجاميلان ، ضم هذا صوته الى مائة ألف صوت ، وصاح وقد خلع قلنسوته : « ليحى مارا ! »**

ودخل الزعيم المظفر قاعة « المؤتمر » وكأنه القضاء ، بينما تفرقت الجموع على مهل . وجلس جاميلان على حجر بشارع (أونوريه) ، وهو يضغط على قلبه بيده ليخفف من حدة خفقاته . فان ما رآه ملأ صدره بانفعال علوى ، وبتحمس مشبوب . فقد كان يبجل « مارا » . . كان يعتز بهذا المريض ذى الأعصاب الملتهبة ، الذى كانت القرح تنهش جسده ، والذى كرس ما تبقى من قواه لخدمة الجمهورية، والذى كان يستقبله — فى منزله المتواضع ، المفتوح الأبواب

للجميع — وهو باسط ذراعيه ، فيحدثه فى حمية عن الصالح العام ، ويسأله أحيانا عن مشروعات الخونة الأشرار .
وكان جاميلان جد مغتبط لأن أعداء هذا الزعيم البار قد مهدوا لانتصاره بتآمرهم على هلاكه . ولقد حمد للمحكمة الثورية أنها اذ برأت «صديق الشعب» ردت الى المؤتمر أشد المشرعين حمية ، وأوفرهم صدقا وطهرا .
وتمثل لعينيه ذلك الرأس الملتهب بالحمى ، المطوق بأكليل الوطنية .. والوجه الذى كان يحمل طابع الاعتزاز بالفضيلة، والحب المجرد من الضعف .. ذلك الوجه المكدود ، المشوه، — الذى يحمل برغم ذلك سمات القوة — والفم الملتوى ، والصدر العريض .. ذلك القوام الربعة الذى كان مشرفا على الفناء ، والذى بدا كأنه يقول لمواطنيه من فوق محفة النصر المؤلفة من أكتاف ورؤوس الأحياء : « كونوا — مثلى — محبين للوطن حتى الموت ! »

واقفر الشارع ، وكساه الليل بظلمته . واقبل العامل الموكل بايقاد المصابيح ، وقد حمل مشعله ، فغمغم جاميلان: « أجل .. حتى الموت ! »

الفصل الخامس



• في الساعة التاسعة صباحا ، وجد ايفاريست «ايلودى» فى انتظاره على أحد مقاعد حديقة (لوكسمبورج) .

كانا مذ تبادلا الاعتراف بالحب ــ منذ شهر ــ يتزاوران: اما فى « لامور بانتر » ، أو فى مرسم ميدان (تيونفيل) . وكانت لقاءاتهما جد عاطفية ، يصحبهما دائما تحفظ كان يفرضه على حبهما طابع شخصية المحب الرزين الورع ، والمواطن المؤمن بالطبيعة ، والذى كان على استعداد لأن يتحد مع حبيبته العزيزة أمام القانون ، أو أمام الله وحده ــ تبعا للظروف ــ ولكنه لم يشأ أن يفعل ما لم يكن فى وضح النهار ، وجهارا . ولقد أدركت « ايلودى » ــ تمام الادراك ــ

ان هذا العزم كان شريفا كريما ، ولكنها فى قنوطها من زواج كان كل شىء يجعله مستحيلا ، وفى أبائها أن تتحدى قواعد العرف الاجتماعى ، تمثلت ـ فى قرارة نفسها ـ رابطة يكسبها التكتم طابع الحشمة ، الى أن يجعلها مرور الزمن جديرة بالاحترام . وفكرت فى أن تتغلب يوما على وساوس عاشق أكثر وقارا مما ينبغى . ولم تشأ أن تتلكأ فى الكشف له عن بعض الأمور الضرورية ، فسألته أن يلقاها ساعة فى الحديقة الخالية من الرواد ، بالقرب من دير (شارترو) .

ورمقته بنظرة كلها حنان وصراحة ، وتناولت يده فأجلسته الى جانبها ، وقالت له وهى تستجمع كل قواها الفكرية :

ـ اننى أقدرك يا ايفاريست الى الدرجة التى ينبغى عندها الا أكتمك شيئا . اننى لأعتقد اننى أهل لك ، وماكنت لأصبح كذلك اذا لم أقل لك كل شىء . فانصت الى ، وكن قاضيا فى أمرى . لست أحمل وزر أثم ألوم عليه نفسى ؛ وضيعا كان أو مجرد عمل انانى . لقد كنت ضعيفة ، وغريرة أصدق كل شىء بسهولة .. ولا تغفل ياحبيبى الظروف العسيرة التى كنت فيها ، وانك لتعرفها .. فقد حرمت من الأم ، وكان أبى لا يزال شابا ، فلم يفكر الا فى ملاهيه ، ولم يشغل باله بأمرى . وكنت مرهفة الحس ، اذ وهبتنى الطبيعة قلبا رقيقا ، ونفسا كريمة .. ومع انها لم تاب على ادراكا أكيدا .. وسليما ، الا أن العاطفة كانت تسود العقل عندى ، فى ذلك الوقت . وياللأسف ! .. وكان من الممكن أن تطغى عليه اليوم كذلك ياايفاريست ، لولا أن العقل والعاطفة اتفقا وأجمعا على أن أمنحك نفسى باكملها ، والى الأبد !

وكانت تتكلم بقدر ، وبحزم .. كان حديثها معـدا من قبل ، فقد عقدت العزم على الأدلاء باعترافها هذا منذ زمن طويل ، لأنها كانت صريحة ، ولأنه كان يروقها أن تحـذو حذو « جان - جاك روسو » ، ولأنها كانت تقول لنفسها عن منطق وتفكير : « لسوف يعـرف ايفاريست يوما أسرارا لست أكتمها وحـدى ؛ ومن ثم فالخير فى اعتـراف تكون حريتى - فى ارسـاله أو امسـاكه - عامـلا يستوجب لى الثناء .. فأطلعه على ما سوف يعرفه يوما فلا يستوجب اذ ذاك سوى خزيى وعارى ! » . ونظرا الى ما كانت عليه من رقة ، ولمـا فطرت عليه من وداعة ؛ فانها لم تر نفسها عظيمة الجرم . ومن ثم كان اعترافها أقل ايلاما وعنـاء . وقد آلت - من قبل - أن لا تقول سوى ما كان قوله ضرورة لازمة . ومن ثم فانها تنهـدت قائلة : « آه ! .. لماذا لم تسقك الاقدار الى ، ياعزيزى ايفاريست ، فى تلك الفترة التى كنت فيها وحيدة ، مهملة ؟ » ...

وكان « جاميلان » قد أخذ طلب « ايلودى » اليه أن يكون قاضيا فى أمرها ، بمعناه الحرفى . واذ كان معدا - بطبيعة دراسته الأدبية - لممارسة البت فى الأمور الشخصية ، فقد تأهب لتلقى اعترافات « ايلودى » . فلما ترددت ، أومأ لها كى تتكلم . فقالت فى بساطة تامة :

- لقد قدر لى أن يعجب بى يوما شاب كانت خصـاله الطيبة قليلة بالنسبة لمـا أوتى من خصال ذميمة ، ولكنـه لم يكن يبدى سوى الأولى .. فشغل بى فى الحاح أدهش أهله ، اذ كان فى مقتبل الشـباب ، مفرط الحسن ، على علاقة بنساء فاتنات لم يكن يخفين شيئا من شغفهن به . وما اهتممت به لجماله ، ولا للباقته .. ولكنه عرف كيف

يؤثر على ، بما راح يشهدنى عليه من حبه ، فاعتقدت أنه قد أحبنى حقا .. كان رقيقا ، ملحاحا . ولم ابتغ أن أرتبط بغير قلبه .. وكان قلبه متقلبا ! .. لست أوجـه الاتهـام



الا لنفسي ، وهذا اعترافى بذنبها ، وليس بذنبه . لست أشكوه ، فانه لم يعد سوى غريب بالنسبة لى . آه ! .. اقسم لك ياايفاريست أنه أصبح بالنسبة لى كأنما لم يكن له وجود البتة !

***

وسكتت . فلم يحر جاميلان جوابا ، بل عقد ذراعيه ، وجمد بصره فى اكتئاب . وراح يفكر فى حبيبته وفى أخته « جولى » ، فى آن واحد .. كانت « جولى » قد أنصتت ــ هى الاخرى ــ الى عاشق ، ولكنها ــ كما جال بفكره ــ كانت على النقيض من «ايلودى» التعسة .. **فقد استسلمت للفتنة ، لا نتيجة خطأ قلب مرهف الحس ، وانما لتحظى بالترف والمتعة ، بعيدا عن أهلها . وكان جاميلان ــ فى صرامته ــ قد أدان اخته ، وقد مال الى ان يدين حبيبته !**

وعادت «ايلودى» تقول بصوت مفرط النعومة والعذوبة :

ــ كنت مليئة بالفلسفة (٣٦) ، وكنت اعتقد ان الرجال امناء بطبيعتهم . وكان سوء حظى ان التقيت بحبيب لم تهذبه مدرسة الطبيعة والمبادىء الخلقية ، ولكن الترهات والنعرات الاجتماعية ، والطموح ، وحب النفس ، وسوء التقدير للشرف ، جعلته انانيا ونذلا !

وانتجت هذه الكلمات ــ المنتقاة من قبل ــ الاثر المنشود . فلانت نظرة جاميلان ، وسألها : « من كان ذلك الذى اغواك ؟.. أفاعرفه انا ؟ »

ــ لا ، انك لا تعرفه .

---

(٣٦) تقصد فلسفة « روسو » الذى كان يدعو الى الحب الطبيعى ، والى ان يتعاشر المحبان دون عقد رسمى ، اكتفاء بأنهما يشهدان الله والطبيعة على زواجهما !

ـ سميه لى !

وكانت قد توقعت هذا السؤال ، وعقدت العزم على ان لا تجيبه . وبسطت حجتها قائلة : « أرجو ان تعفينى .. لمصلحتك ولمصلحتى على السواء . فانى أرانى قد قلت أكثر مما ينبغى ! » . فلما الح قالت : « ان المصلحة المقدسة لحبنا تستوجب ان لا اقول شيئا يكشف لذهنك ذلك .. الغريب . اننى لا أبغى ان ألقى على تفكيرك شبحا يثير غيرتك .. لا أريد ان أقيم ظلا مزعجا بينى وبينك . وما ينبغى ان اعرفك بهذا الرجل فى الوقت الذى نسيته انا فيه! »

وراح « جاميلان » يلح عليها لتبوح له باسم ((**الغاوى**)) وهو اللقب الذى أخذ يستخدمه فى اصرار : اذ انه لم يرتب فى ان « ايلودى » قد اغويت ، وخدعت ، وغرر بها .. **بل انه لم يتصور ان من الممكن أن يكون الامر قد جرى على الوجه الآخر ، وان ((ايلودى)) قد انصاعت للشهوة ــ الشهوة الجامحة ــ وانها اصغت الى النصائح المعسولة المنبعثة من لحمها ودمها .. لم يتصور قط أن هذه المخلوقة المثيرة ، الناعمة العواطف .. ان هذه الضحية الجميلة قد قدمت نفسها بمحض اختيارها !..** بل رأى ــ لكى يرضى خياله ــ انها ولابد قد أخذت قسرا او بالحيلة ، فاغتصبت ، وراحت تتخبط فى احابيل نصبت فى طريق كل خطوة من خطواتها . ومضى يوجه اليها اسئلة تناسب الحال ولكنها دقيقة ، ومحرجة ، ضيقت الخناق عليها . سألها : كيف نشأت تلك الصلة ، وهل كانت طويلة الأجل أو قصيرة ، وهل كانت هادئة أو محفوفة بالمتاعب ، وعلى أى وجه انقطعت .. وكان لا يكف عن العودة الى السؤال عن الوسائل التى استخدمها ذلك الرجل للاغواء ، وكأنما كان موقنا من أنه

استخدم وسائل عجيبة ومزعجة . على ان كل هذه الاسئلة كانت عبثا ، فقد لاذت الشابة بالصمت فى اصرار رقيق لين ، وظل فمها مغلقا ، وعيناها مغرورقتين .

غير انها لم تلبث ان اجابت ، عندما سألها ايفاريست اين كان ذلك الرجل فى تلك الآونة : « لقد غادر المملكة ! » .. واستدركت فى عجلة : « .. فرنسا » . فصاح جاميلان : « اذن فهو مهاجر ! »

ورمقته فى صمت ، وقد طمأنها — وأحزنها فى الوقت ذاته — ان تراه يوحى الى نفسه بحقيقة تتمشى مع مشاعره السياسية ، وتسبغ على غيرته لونا يعقوبيا لم يكن يكبد احدهما ثمنا !

والواقع ان عشيق « ايلودى » كان كاتبا صغيرا لدى أحد المحامين .. وكان فتى بارع الحسن ، مرحا كالجدول الطروب ، تدلهت الفتاة فى حبه ، وظلت ذكراه تبعث دفئا فى صدرها ، رغم انقضاء ثلاث سنوات !.. وكان يجرى وراء الغنيات المسنات ، وقد هجر ايلودى من اجل سيدة ذات تجارب تلائم مواهبه !.. وقد التحق — بعد مصادرة المكتب الذى كان يعمل فيه — بالهيئة الادارية لباريس ؛

وعاد جاميلان يردد : « اذن فهو نبيل ! .. مهاجر ! » .. وحرصت على أن تضلله ، وهى مطمئنة الى انه لن يعرف الحقيقة بأكملها اطلاقا ... وعاد يقول : « **وتخلى عنك بنذالة ؟! »**

ونكست راسها ، فضمها الى قلبه قائلا : « ايتها العزيزة .. انك ضحية الفساد الملكى ، ولسوف ينتقم لك غرامى من **ذلك الخسيس . الا ليت السماء تسوقني الي لقائه !.. لسوف اهتدي اليه ! »**

وأشاحت عنه بوجهها ، وقد استولى عليها الاسى والابتسام وخيبة الرجاء معا !.. وودت لو انه كان اكثر فطنة الى امور الهوى ، واكثر انسياقا للطبيعة ، واشد جموحا وضراوة فى عواطفه . وبدا لها انه ما غفر لها بمثل هذه السرعة ، الا لانه اوتى خيالا باردا ، ولان الاعتراف الذى ادلت به اليه لم يوقظ فى نفسه شيئا من الرؤى التى تعذب اصحاب العواطف الملتهبة .. ولانه ــ باختصار ــ لم ير فى زلتها سوى مسألة خلقية واجتماعية !

ونهضا ، فراحا يجوسان خلال دروب الحديقة الخضراء . وقال لها انه أصبح أكثر تقديرا لها من قبل ، لما عانته من عذاب . وما كانت « ايلودى » لتسأله اكثر من هذا ، فانها كانت تحبه على علاته ، وكانت تعجب بالعبقرية الفنية التى كانت تراها تتأجج فيه !

وعند خروجهما من حديقة (لوكسمبورج) ، صادفا جموعا محتشدة فى شارع المساواة (دى ليجاليتيه) ، وحول مسرح الامة من كل جانب . وما كان هذا بالامر الذى يدعو الى الدهشة ، فقد كان ثمة اضطراب عظيم يسيطر على الاحياء الشديدة الوطنية ــ منذ بضعة ايام ــ اذ كان ثمة استنكار للتمرد الذى نشب فى (اورليان) ، وعلى انصار « بريسو » الذين قيل انهم كانوا يتآمرون على تخريب (باريس) وتذبيح الجمهوريين . وكان جاميلان نفسه قد وقع ــ من مدة وجيزة ــ التماس الجمعية العامة الذى كان يطالب بطرد الواحد والعشرين (**انظر الهامش رقم ٦**) .

وكان عليهما ــ حين اوشكا ان يجتازا القنطرة التى كانت تصل المسرح بالمنزل المجاور ــ ان يمرا خلال جمع من المواطنين الذين ارتدوا « الكارمنيول » ، يخطب فيهم ــ من

اعلى ساحة المسرح ـ شاب فى ثوب عسكرى ، وفى جمال الحب كما صوره « براكسيتيل » ، وقد ارتدى قلنسوة من جلد الفهد . وكان هذا الجندى الفاتن يتهم « صديق الشعب » بالتهاون ، ويقول : «انك تنام ياماارا بينما يصوغ لنا الخفاء الأغلال ! » .. وما ان صوبت « أيلودى » عينيها نحوه ، حتى قالت فى عجلة : « هيا ياايفاريست ! » . وزعمت ان الـزحام ازعجها ، وانها كانت تخشى ان يغشى عليها لفرط التدافع .

واقترقا فى ميدان الامة ، بعد ان تبادلا الايمان على الحب الابدى !

***

فى ساعة مبكرة من ذلك الصباح ، كان المواطن « بروتو » قد قدم الى المواطنة « جاميلان » هدية فاخرة ، تمثلت فى ديك سمين . ولم يكن من الحكمة ـ من جانبه ـ ان يذكر كيف حصل عليه ، اذ انه كان قد أخذه من سيدة فى سوق المدينة (لاهال) ، كان يعمل كاتبا لها أحيانا .. وكان المعروف ان سيدات (لاهال) يغذين مشاعر أنصار الملكية ، ويراسلن المهاجرين !

وتلقت المواطنة جاميلان الديك بقلب مفعم بالعرفان ، فما عادت مثل هذه النعم ترى فى تلك الايام .. اذ عزت الاقوات ، وأصبح الناس يخشون المجاعة .. وقيل ان الاوستقراطيين كانوا يتطلعون الى هذه المجاعة ، وان الاحتكاريين كانوا يمهدون لها !

ودعى المواطن «بروتو» ليأكل نصيبه من الديك فى الغداء ، فجاء ملبيا الدعوة ، وأطرى مضيفته لما كان لطبخها من أريج ذكى تفوح فى المسكن كله . والحق ان المرسم كان يعبق

برائحة المرق الدسم . وقالت السيدة العجوز ترد على اطرائه : « انك مفرط اللطف ياسيدى .. لقد اعددت ـ لتهيئة المعدة لتتلقى ديكك ـ حساء من مرق الخضر وجلد الخنزير المفروم وقطعة كبيرة من عظام البقر . فليس أفضل من عظمة ذات نخاع ، ليكون للحساء عبير شهى ! »

فأجاب الشيخ بروتو : « **انها لفكرة بديعة ايتها المواطنة . وانك لتحسنين صنعا اذا أعدت هذه العظمة الثمينة الى قدر الحساء فى غد ، وبعد غد ، وبقية الاسبوع ، حتى لا يعوزه العبير !** .. لقد كانت عرافة (بانزوست) تفعل ـ فيما مضى ـ شيئا من هذا القبيل .. كانت تصنع حساء من الكرنب الاخضر ، ومفروم دهن الخنزير الاصفر ، و « سافورادو » قديمة .. فهكذا تسمى العظمة ذات النخاع الكثير والعبير الشذى ، فى بلادها .. التى هى بلادى انا الآخر ! »

وقالت المواطنة جاميلان : « ألم تكن هذه السيدة ـ التى تتحدث عنها ياسيدى ـ شحيحة بعض الشيء ، اذ تستخدم العظمة الواحدة امدا طويلا ؟ » . فأجاب بروتو : « لقد كانت ضئيلة الدخل .. كانت فقيرة ، برغم انها عرافة ! »

واقبل ايفاريست جاميلان فى تلك اللحظة ؛ وهو شديد التأثر بما سمع من اعترافات . وقد عاهد نفسه على أن يعرف الرجل الذى أغوى « ايلودى » ليثأر منه للجمهورية ولحبه فى آن واحد !

وبعد المجاملات المعتادة ، وصل المواطن بروتو حبل الحديث قائلا : « من النادر لمن يمارسون مهنة التنبؤ بالمستقبل ان يثروا ، فان الناس سرعان ما يفطنون الى خدعهم ، ولا تلبث حيلهم ان تجعلهم مكروهين . على انهم

خليقون بأن يغدوا أشـــــد تعرضا للمقت ، لو انهم كانوا يكشفون المستقبل حقا . ذلك لأن حياة الانسان تغدو غير محتملة ،اذا هو عرف ما كتب له ان يصيبه . انه — اذذاك — يكتشف عللا مقبلة ، فيعانيها مقدما ، ولا يعود يهنأ بالنعم الحاضرة ، التى اطلع على نهايتهـا . **أن الجهل هو الشرط الذى لاغنى عنه لهناء البشر ، ومن الواجب أن يدرك الناس أنهم فى أغلب الاحيان يفيدون منه** . اننا نجهل كل شيء عن أنفسنا تقريبا .. وكل شيء تماما عن سوانا . ان الجهل هو الذى يكفل لنا الطمأنينة .. والوهم الكاذب يكفل لنا راحة البال ! »

ووضعت المواطنة جاميلان الحســاء على المائدة ، وتلت صلاتها ، ودعت ابنها وضـــيفها الى الجلوس . ثم شرعت تأكل وهى واقفة ، وقد رفضت المكان الذى افســحه لها المواطن بروتو الى جـواره ، اذ كانت تعرف — كما قالت — مما يتطلبه حسن السلوك !

الفصل السادس



● الساعة العاشرة صباحا ، وليس من نسمة تحـــرك الهواء .. كان ذلك أسخن « يوليو » عـــرفه الناس . وفى شارع (اورشليم) الضيق ، اصطف حــــــوالى مائة من المواطنين ســــكان القطاع أمام باب الخباز ، تحت اشراف اربعة من الحرس الوطنى الذين راحوا يدخنون غلايينهم ، وهم متكئون على اسلحتهم .

وكان « المؤتمر » الوطنى قد عين الحد الاقصى للاسعار ، فسرعان ما اختفى القمح والدقيـــــق . وبات لزاما على الباريسيين ـ وقد أصبحوا كبنى اسرائيل فى الصحراء ـ إن ينهضوا قبـــل مطلع النهار ، اذا هم ارادوا ان ياكلوا .

ومن ثم وقف كل هؤلاء الناس متلاصقين ـ رجالا ونساء واطفالا ـ تحت سماء كأنها الرصاص المصهور ، تبخر الماء العطن فى البالوعات ، وتثير روائح العرق والنتن .. وهم يتململون ، ويتساءلون ، وينظر بعضهم الى بعض بكل العواطف التى يمكن للمخلوقات البشرية ان تستشعرها فيما بينها : من نفور ، واشمئزاز ، واهتمام ، ورغبة ، وعدم اكتراث . **فقد كانوا يعرفون ـ بالتجربة القاسية ـ ان ليس ثمة خبز يكفى جميع الناس ، ومن ثم فان الذين وصلوا متأخرين سعوا الى ان يندسوا بين المتقدمين ، وراح الذين فقدوا أماكنهم فى الصف يشتكون وينفعلون ويطالبون مهتاجين ـ دون جدوى ـ بحقهم المغتصب ..** واعملت النساء سواعدهن وأردافهن ـ فى غبط محموم ـ ليحتفظن بأماكنهن أو ليكسبن خيرا منها . فاذا ما اشتد الزحام وأصبح خانقا ، تعالت صيحات : « لا تتدافعوا ! » ، فينفى كل واحد انه ساهم فى الدفع ، قائلا ان سواه كان يدفعه !

ولتفادى هذه الفوضى اليومية ، خطر للجنود المنتدبين من القطاع ان يشدوا الى باب المخبز حبلا يمسكه كل امرىء بدوره . ولكن الايدى كانت تتقارب بسرعة ، ثم تلتقى على الحبل ، وتندمج فى عراك . وما كان ليقدر لليد التى تفلت الحبل ان تعود الى الامساك به . وكان المستاءون ـ أو الماجنون ـ يقطعون الحبل ، فلم يكن ثمة بد من العدول عن هذه الطريقة !

وكان من الواقفين فى هذا الصف من يختنقون ، ومن يخشون أن يموتوا ، ومن يطلقون المزح والنكات ، ومن يتراشقون بالعبارات البذيئة ، ومن ينطلقون بسباب **الارستقراطيين والمتحدين ، متهمين اياهم بانهم أصل كل**

شر . فاذا مر كلب ؛ انطلقت النكات تسـميه « بيت » .
واحيانا كان يدوى رنين صفعة قوية ، توقعها يد احـدى
المواطنات على صدغ أحد الوقحين .. بينما تتنهد احـدى
الخادمات الشابات ، فى رفق وانتشـاء ، وعيناها نصف
مغمضتين ، وفمها نصف مفتوح ، اذ التصق بها جارها !..
وعند كل كلمة ، وكل اشـارة ، وكل تصرف يوقظ روح
الفكاهة الخليعة التى يتسم بها الفرنسيون المرحون ، كانت
ثلة من الشباب الماجن تنطلق بالنشيد الوطنى ، على الرغم
من احتجاجات شيخ يعقوبى مسن ، راح يستنكر اقحامهم
– فى مجونهم القذر – نشيدا يعبر عن الايمان الجمهـورى
بمستقبل مفعم بالعدالة والرفاهية !

وأقبل احد لاصقى الاعلانات – وسـلمه تحت ابطه –
فألصق على الجدار المواجه للمخبز ، بيانا من الجمعية العامة
بتحديد مقدار ما يباع من اللحم لكل فرد .. ووقف بعض
المارة ليقرأوا الورقة – وهى بعد لزجة مبتلة .. وصاحت
بائعة كرنب – كانت تسير حاملة سلتها على ظهرها – بصوت
اجش متقطع : « لقد راحت العجول الطيبة .. فلنقنـع
بشواء المصارين ! »

وارتفعت من احدى البالوعات – على حين غرة – رائحة
شديدة القبح ، حتى ان كثيرين اصيبوا بالغثيان . وساءت
حال امرأة فأغمى عليها ، وارتمت على اثنين من الحرس
الوطنى فحملاها الى مضخة ماء كانت على بضع خطوات ..
وسدت الانوف ، وانبعثت زمجرة متذمرة ، وتبودلت عبارات
مليئة بالضيق والسخط . وتساءل البعض عما اذا كانت
تلك رمة حيوان مدفون هناك ، او سما بث عن سوء نية ..
او لعلها فى الغالب جيفة احد الذين ذبحوا فى مذابح سبتمبر

ـ نبيلا كان او من رجال الدين ـ وقد نسيت فى سرداب مجاور .

ـ وهل كانوا يوضعون هناك ؟

ـ لقد كانوا يوضعون فى كل مكان !

ـ انه ولابد واحد ممن كانوا فى « شاتيليه » (٣٧) . فقد رأيت فى اليوم الثانى من الشهر ثلاثمائة من جثثهم مكدسة على جسر (اوشانج) .

وكان الباريسيون يخشون أن ينتقم اولئك لأنفسهم ـ فى موتهم ـ بأن يسمموهم بعفنهم .

***

وانضم « ايفاريست جاميلان » الى الصف ، فقد كان راغبا فى أن يجنب امه العجوز متاعب الانتظار الطويل . ورافقه جاره ـ المواطن بروتو ـ وهو هادئ النفس ، باسم الثغر ، وديوان أشعار « لوكريس » فى جيب « ردينجوته » العتيق . ووصف الكهل الطيب هذا المنظر ـ فى حذلقة ـ فشبهه بلوحة مليئة بالاشجار ، جديرة بريشة رسام حديث يحذو حذو « تانييه » .

وقال : « ان هؤلاء الحمالين ، وهاته الثرثارات ، أبهج منظرا من الاغريق والرومان الذين يعتز بهم رسامونا اليوم . أما أنا ، فقد كنت أوثر دائما الطريقة الهولندية ! » . . **اما الذى لم يذكره اطلاقا ـ عن حكمة وكياسة ـ فهو انه كان يمتلك قاعة مليئة باللوحات الهولندية ، لم تكن تعادلها ـ فى**

---

(٣٧) الحصن الاصفر من حصنين قديمين كانا يقومان علي ضفة « السين » في باريس . وكان هذا الحصن يستخدم كسجن .

عدد الصور وقيمتها الفنية ـ سوى خزانة المسـيو دى شوازيل (٣٨) .

ورد عليه الرسام قائلا : « لا جمال الا فى القديم وما يوحى به ، ولكنى أوافقك على ان الاشجار ـ فى لوحـات تانييه ، وستين ، واوستباد ـ تفضل فى القيمة الزخارف المأخـوذة عن القرون الوسطى فى لوحات واتو ، وبوشيه ، وفان لو .. هنا تجد البشرية مشوهة ، ولكنها أبدا غير مهينة ولا مزدراة كما فى لوحات بودوان أو فراجونار » .

ومر مناد كان يصيح : « نشرة المحكمة الثورية !.. قائمة اسماء الذين قضى عليهم بالاعدام ! »

فقال جاميلان : «ان محكمة ثورية واحدة لاتكفى . يجب أن تقام فى كل مدينة واحدة .. ماذا أقول ؟ .. بل فى كل مديرية ؛ وفى كل اقليم . يجب ان ينصب الآباء فى الاسرات ـ والمواطنون أجمعون ـ أنفسهم قضاة . فعندما تكون الامة تحت مدافع الاعداء ، وتحت خناجر الخونة ، يصبح التساهل جريمة منكرة . أجل !.. ان ليون ومارسيليا وبوردو قـد شقت عصا الطاعة ، وكورسـيكا ثائرة ، وفانديه فى نار ، وماينس والفالنسيين سقطت تحت سلطان المتحالفين .. والخيانة فى الريف ، وفى المدن ، وفى المعسكرات .. الخيانة تتربع على مقاعد المؤتمر الوطنى .. الخيانة تجلس فى مجالس الحرب ، وفى مجالس قادتنا ، وفى يدها الورقة الكفيلة بأن تقلب الميزان !.. الا ليت المقصلة تنقذ الوطن ! »

فرد الشيخ بروتو : «مامن اعتراض جوهرى أملك ابداءه

---

(٣٨) الدوق اتيين فرانسوا دى شوازيل . كان وزيرا للخارجية فى عهد لويس الخامس عشر .

ضد المقصلة . أن الطبيعة ــ وهى مولاتى الوحيدة، ومعلمتى الوحيدة ــ لم تلقننى على أى وجه، ان حياة الانسان ذات قيمة . . بل انها علمتنى على النقيض ــ وبكل الطرق ــ أن ليس لحياة الانسان قيمة البتة . ويبدو ان النهاية الوحيدة للكائنات ، هى ان تغدو غذاء لكائنات أخرى مكتوب عليها ان تسير الى النهاية عينها ! . . **ان القتل هو قانون الطبيعة ، ومن ثم فان الحكم بالموت امر مشروع ، على شريطة ان لا يمارس باسم الفضيلة ولا باسم العدالة ، وانما بحكم الضرورة ، او الرغبة فى الحصول على كسب ما** . . ومع كل ، فلابد اننى أوتيت فطرة شاذة ، اذ اننى اعاف رؤية لون الدم ، وهو عيب لم تفلح بعد كل فلسفتى فى أصلاحه ! »

فقال ايفاريست : « ان الجمهوريين قوم ذوو انسانية ورشاد . وليس سوى المستبدون من يتشبثون بأن عقوبة الاعدام امتياز ضرورى للسلطان . اما وقد غدا الشعب هو السلطان ، فانه لن يلبث أن يلغيها يوما ما . لقد كافحها روبسبيير ومعه كافة الوطنيين ، ولن يطول تأخر صدور القانون الذى يلغيها . . بيد ان من الواجب ان لا ينفذ هذا الالغاء ، الا بعد ان يهلك آخر عدو للجمهورية ، تحت سيف القانون ! »

وكان قد تجمع وراء جاميلان وبروتو ــ فى تلك الاثناء ــ كثير من المتأخرين ، بينهم عدد من نسوة القطاع ، ومنهن حسناء بارعة فى حبك الصوف (التريكو) ، وقد أحاطت راسها بمنديل ، وانتعلت نعلين خشبيين (قبقابا) ، وحملت سيفا فى قراب . . كما كانت بينهن فتاة جميلة ، شقراء ، شعثاء ، بدا وشاحها شديد التجعد . . وأم شابة ، هزيلة ، صفراء اللون ، القمت ثديها طفلا أعجف . فأخذ الطفل

يبكى ، اذ لم يجد فى الثدى لبنا ، ولـــكن صرخاته كانت واهنة ، والعبرات تخنق صوته .. كان طفلا يثير الرحمة فى القلوب ، وقد شحب لونه واستقع ، واحتقنت عيناه .. وكانت امه تتأمله فى أسى ملتاع .

وقال جاميلان ، وهو يلتفت الى الرضيع التعس — الذى كان ينتحب خلفه — وســط تزاحم اولئك الذين وفدوا متأخرين : « ما أصفره ! »

— ان عمره ستة أشهر ، هذا الحبيب المسكين !.. ابوه فى الجيش ، فهو أحد الذين ردوا النمسويين عن (كونديه) ، ويدعى دومونتيى (ميشيل) . وهو عامـــل نسيج ، بحكم حرفته . لقد سجل اسمه متطوعا ، فى سرادق كان قد اقيم أمام دار البلدية . لقد اراد الحبيب المســكين ان يذود عن وطنه ، وان يتفرج على البلاد .. **وكتب الى ، يدعونى الى التذرع بالصبر . ولكن ، كيف ترانى أغذى بول المسكين — فان الطفل يسمى : بول — وانا لا استطيع ان اغذى نفسى ؟**

وهتفت الجميلةالشقراء : « آه !.. لا يزال امامنا ساعة ، ولابد من ان نكرر هذا الاجراء أمام باب البدال فى المساء .. ان المرء ليتعرض للموت فى سبيل الحصول على ثلاث بيضات وقطعة من الزبد ! » . فتنهدت المواطنة دومونتيى قائلة : « الزبد ؟!.. هاقد انقضت ثلاثة اشهر دون أن أراه ! »

واخذ فريق النساء ينعى ندرة القوت وغـــلاء اثمانه ، ويهيل السباب على المهاجرين ، وينذر المقصلة منـــدوبى القطاع الذين كانوا يعطون النسوة الخليعات دجاجا وارغفة — من التى تزن اربع ليبرات (٣٩) — فى مقابل خـــدمات

---

(٣٩) الليبرة وحدة قديمة للوزن ، يطلق اسمها خطأ على ما يعـــادل نصف الكيلو جرام .

مخجلة !.. وانتشرت قصص تثير الفزع عن قطعان من الماشية افرقت فى (السين) ، واكياس من الدقيق أفرغت فى البالوعات ، وخبز ألقى فى المراحيض .. لقد كان الملكيون والرولانديون والبريسوتيون هم الذين يعملون على اجاعة أهل باريس ، ويسعون الى اهلاكهم !

***

وفجأة ، اخذت الجميلة الشقراء — ذات الوشاح المجعد — تصرخ ، كما لو كانت النار قد علقت بثوبها ، الذى راحت تنفضه بعنف وتقلب جيوبه ، معلنة ان كيس نقودها قد سرق .. وعلى ضجيج هذه السرقة ، سرى استنكار عظيم فى اولئك القوم المتواضعين ، الذين اقتحموا قصور ضاحية (سان جيرمان) ، وغزوا (التويلرى) ، دون ان يستولوا على شىء .. **اولئك الصناع وربات البيوت الذين احرقوا قصر (فرساى) بنفوس مطمئنة ، ولكنهم كانوا يخشون العار اذا هم سرقوا دبوسا** . واخذ الفتية الماجنون ينشئون بعض النكات البذيئة على نكبة الفتاة الصغيرة الحسناء ؛ ولكنهم سرعان ما خرسوا امام زجرات القوم . ونادى البعض اذذاك بشنق السارق على عمود المصباح . وانهمك القوم فى تفتيش صاخب ومتعصب . واشارت الفتاة الماهرة فى حبك الصوف بأصبعها نحو كهل اشتبه فى انه كان راهبا خلع عنه مسوحه ، واقسمت ان هذا « الكبوشى » (٤٠) هو الذى ارتكب السرقة ، فسرعان ما اقتنع الحشد ، ونادى بموته !

وكان الكهل الذى قضى عليه بقصاص الجمهور — بهذا

---

(٤٠) الرهبان « الكبوشيون » اتباع القديس فرانسوا . وكانوا يتكفلون باطفاء الحرائق فى باريس ، قبل الثورة .

الحماس – يقف امام المواطن « بروتو » فى تواضع جم .. وكان له – والحق يقال – كل سمات رجل الدين السابق.. كان مظهره وقورا جليلا : لم ينل منه الاضطراب الذى الم بالرجل المسكين من جراء هياج الحشد وذكرى أيام شهر سبتمبر التى كانت بعد حية فى النفوس . على ان الخوف الذى ارتسم على وجهه دعم شك القوم الذين اعتقدوا – فى قرارات نفوسهم – ان المذنبين وحدهم هم الذين يخافون أحكام الرأى العام ، وكأنما لم يكن هذا الاندفاع المتهور كافيا لأن يلقى الذعر فى قلوب أكثر الناس براءة .

وكان « بروتو » قد جعل لنفسه ديدنا ان لا يعترض الشعور العام ، لا سيما حين يتجلى هذا الشعور أرعن ضاريا « لأن صوت الشعب يكون اذذاك من صوت الله » ، كما كان يقول . ولكن بروتو لم يرع هذا الديدن ، فأعلن ان هذا الرجل – كبوشيا كان او غير كبوشي – لم يكن يستطيع ان يسرق المواطنة ، لأنه لم يقربها لحظة واحدة .

ورأى القوم انالذى كان يدافع عنالسارق لابد ان يكون شريكا له ، فانقلبوا يتحدثون عن وجوب معاملة الشريرين بالشدة ؛ وإذ تكفل جاميلان بضمان بروتو ، نادى أكثر القوم حكمة بارساله مع الآخرين الى الجمعية العامة للقطاع . ولكن الفتاة الجميلة صرخت – فجأة – فى ابتهاج ، معلنة انها وجدت كيسها . وسرعان ما انهالت عليها السخريات والوعيد بأن تساط علانية ، كما لو أنها كانت راهبة !

وقال رجل الدين لبروتو : « أشكر لك انبراءك للدفاع عنى يا سيدى ... ليست لاسمى قيمة تذكر ، ولكنى أرى من واجبى ان اذكره لك .. فأنا ادعى «لوى دى لونجمار» . وإنا قس حقيقيا ، ولكني لست « كبوشيا » – كما قالت هيلدم

النسوة ــ وانما أنا قس نظامي من طائفــة البرنابيين ، التي قدمت للكنيسة زرافات من الاطبـــاء والقديسين . ولسنا نصيب الحقيقة تماما اذا ارجعنا منشأ هـــذه الطائفة الى القديس شارل بوروميه ، بل يجب أن نعتبر القديس بولس هو منشئها الحقيقي ..ومن ثم فانها تثبت شعاره على لوائها وشارات الشرف الخاصة بها . وقد اضطررت الى أن أهجر ديري ــ اذ أصبح مقرا للجنة قطاع (بون نيف) ــ وان ارتدى زيا مدنيا » . فقال بروتو ، وهو يتأمل العبـــاءة الطويلة الفضفاضة التي كان السيد دي لونجمار يرتديها : « ان ثوبك يا أبي ، يشهد بما فيـــه الكفاية ، على انك لم تنبذ مهنتك . فان الذي يراه يعتقد انك لم تهجر مذهبك .. بل يؤمن بانك جددته . وانك لتعرض نفسك بسذاجة ــ تحت هذا المظهر المتقشف ــ لأذى قــوم ملحدين ! » . فأجاب رجل الدين : « **ولكنني لا استطيع كذلك ان أرتدي حلة زرقاء كالراقص !** »

ــ ان ماأقوله عن ثوبك يا ابي ، ليس غير تحية لشخصيتك ، وتحذير لك ضد الاخطار التي تتهددك !

ــ **على العكس يا سيدي ، خليق بك أن تشجعني على أن اجهر بعقيدتي . ذلك لأنني لا أميل كثيرا الى التخــوف من الخطر** . لقد هجرت زيي يا سيدي ، وهذا نوع من العقوق .. وكنت أوثر ــ على الاقل ــ ان لا أهجـــر البيت الذي ارتضاه الله لي طيلة هذه السنين الطويلة ، لأنعم فيه بحيـــاة آمنة وادعة . لقـــد ظفرت باذن بالبقاء هنـــاك ، ولزمت صـــومعتي ، الى أن حولوا الكنيسة والدير الى شبه دار صغيرة للبلدية ، اسموها « الجمعية العامة للقطاع » . ولقد رأيت يا سيدي .. شهدت بعيني تحطيم رموز وشـــارات الحقيقة القدسية .. شهدت اسم بولس الرسول وقد جلت

محله قلنسوة من قلنســـــوات المسجونين المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .. بل انني ساهمت – في بعض مرات – في جلسات الجمعية العامة للقطاع ، فسمعت أخطاء مذهلة تعرض . وقصارى القول انني هجرت هذا المأوى المدنس ؛ واصبحت أعيش على المائة البيستول (١) – التي قررتهـــا لي الجمعية العامة – في حظيرة استولوا على خيلها وأرسلوها لخدمة الجيوش . هناك أقيم القداس بحضور بعض المؤمنين الذين يفدون ليشهدوا بخلود كنيسة يسوع المسيح ! »

فرد عليه الآخر : « اما أنا يا أبي فأدعى – اذا شئت أن تعرف – بروتو ، وقد كنت من قبل جابيا للضرائب » . فقال الاب لونجمار : « **لقد تعلمت من المثال الذي ضربه القـديس ماتيـــــو – يا سيدي – ان من الجائز أن يسمع المرء حديث الخير من موظف حكومي !** »

– انك لصالح ، بالغ اللطف ، يا أبي !

فقال جاميلان : « الا أعجب – أيها المواطن بروتو – بهـذا الشعب الطيب ، الذي يشتهي الصـــداقة أكثر مما يشتهي الخبز . فقد كان كل امرىء هنا على استعداد لأن يترك مكانه لشنق السارق .. ان هـــؤلاء الرجال ، وهـــؤلاء النساء صارمون في أمانتهم برغم فقرهم ، وبرغم أنهم يرزحون تحت كل هـذا الحرمان . فهم لا يستطيعون أن يطيقوا عملا غير شريف ! »

فأجابه بروتو : « من الواجب الاعتراف بان هؤلاء النـاس في حميتهم الشديدة لشنق السارق ، قد شنوا حملة سيئة على هذا القس الطيب ، وعلى من دافع عنه ، وعلى من دافع عن المدافع عنه !.. **ان ما أوتوه من ضن بمتاعهم ، ومن خبث**

---

(١) عملة ذهبية كانت شائعة في فرنسا ، في الماضي .

الثاني لمصلحتهم ، هما اللذان دفعاهم الى ذلك ، فان اللص الذى يسطو على احدهم ، يهـــدد البـــاقين ، ومن ثم فهم يحافظون على أنفسهم بمعاقبتـــه .. ومع ذلك ، فمن الجائز ان غالبية هؤلاء الصناع وربات البيوت آفاضـــل يحترمون متاع الغير .. وان هذه المشاعر قد غرسها آباؤهم وأمهــاتهم فى نفوسهم منـــذ الصغر ، اذ كانوا يجلدونهم جلدا مبرحا ، حتى اضطروهم الى انتهاج الفضيلة قسرا ! »

ولم يخف جاميلان عن الشيخ بروتو أن مثل هذه اللهجة لا تبدو جديرة بفيلسوف . وقال : « **ان الفضيلة خلة طبيعية فى الانسان ، أودع الله بذرتهـــا فى قلوب المخلوقات** » .. وكان الشيخ بروتو زنديقا ، يستمد من زندقته لذة فياضة ، فقال : « ارى أيها المواطن جاميلان انك وان كنت ثوريا فيما يتعلق بالارض ، الا انك ــ فيمـــا يتعلق بالسماء ــ محافظ ، بل رجعى .. وان روبسبيير ومارا ليفوقانك فى ذلك . وشد ما أعجب من أن الفرنسيين لم يعـــودوا يطيقـــون ملـــكا فانيا ، يرتضون احتمال ملك غير فان ، هو أكثر ظلما وطغيانا .. والا ، فما (الباستيل) أو غرفة التعذيب بالقياس الى الجحيم ؟ .. **ان الانسانية ترسم آلهتها على غرار طغاتها .. واذا بكم تحرصون على الصورة ، وأنتم الذين تنبـــذون الاصل !** »

فصاح جاميلان : « ويحـــك يا مواطن ! .. ألا تخجل من ازجاء كلام كهذا ؟ .. كيف تخلط الآراء اللاهوتية المعتمـــة ــ المتولدة عن الجهل والخوف ــ بخالق الطبيعـــة ؟ .. ان الايمان برب طيب أمر لا غنى عنه للاخلاق . فالكائن الاعلى هو منبع الفضائل جميعا ، ولن يكون المرء جمهوريا اذا هـــو لم يؤمن بالله . لقد عرف روبسبيير ذلك ، فرفع من قاعة

اليعاقبة تمثال الفيلسوف « هلفيتيوس » ، الذى يحمل وزر خنوع الفرنسيين للعبودية ، اذ لقتهم الكفر بالله .. وما دامت الجمهورية قد أنشأت مذهب الايمان بالعقل ، فانى آمل ــ أيها المواطن بروتو ــ أن لا تأبى اعتناق عقيدة حكيمة كهذه ، على الاقل ! »

ورد بروتو قائلا : « انني أحب العقل ، ولكنى لست متطرفا فى ذلك ، ان العقل يرشدنا ويضىء لنا السبيل . أما اذا جعلتم منه ربا قدسيا ، فانه سيعميكم ويضلكم ويغريكم بالاجرام ! »

وواصل « بروتو » الجدال وقدمه فى ماء البالوعة الآسن ، كما اعتاد أن يفعل ــ من قبل ــ وهو فى أحد المقاعد المريحة المذهبة ، فى دار البارون « دولباخ » الذى أفاد ــ على حد تعبيره ــ الفلسفة الطبيعية فوائد جوهرية .. فقال : « ان جان جاك روسو ، الذى أبدى بعض المواهب ــ لا سيما فى الموسيقى ــ كان دعيا زعم انه أستمد مبادئه الخلقية من الطبيعة ، وهو قد استمدها ــ فى الواقع ــ من مبادىء كالفن . ان الطبيعة تعلمنا أن نفترس بعضنا بعضا ، وتقدم لنا النماذج لكل الجرائم ولكافة الرذائل والشرور ، التى يصلحها الوضع الاجتماعى أو يتستر عليها . ان من الواجب حب الفضيلة ، ولكن من الخير معرفة انها حيلة ساذجة ابتكرها البشر ليعيشوا معا فى وئام . وليس هذا الذى ندعوه بالقانون الخلقى سوى محاولة يائسة منا جميعا ، ضد نظام الكون الذى يتمثل فى الصراع ، والتذبيح والصدام الاعمى بين القوى المتضادة . ان الكون يهدم نفسه بنفسه ، وكلما امعنت تفكيرا فى ذلك ، ازددت اقتناعا بأن

الكون مجنون!.. ان اللاهوتيين والفلاسفة – الذين يجعلون الله خالق الطبيعة ومهنـــــدس الكون – اظهروه لنا شريرا ، ومناقضا للعقل .. وهم يقولون انه طيب لأنهم يخـافونه ، ولكنهم مسوقون الى أن يعترفوا بأنه يسلك مسلكا ظالما .. انهم ينسبون اليه خبثا نادر الوجود ، حتى لدى الانسان ، وهم يتوسلون بهذا الى أن يجعلوه معبودا على الارض . ذلك لأن جنسنا التعس لا يعتنق عقيدة تمت الى ارباب عادلين رحيمين ، وليس فيها ما يدعو الى الخوف . انهم لا يرون مصلحة في عرفان لا يجدى .. فبدون المطهر والجحيم ، لا يكون الاله الطيب غير مولى مسكين ! »

فقال الاب لونجمار : « لاتتكلم قط عن الطبيعة يا سيدى، فأنت لا تدرى كنهها ! »

– لعمر الله يا أبت ، انى لأعرفها بقدر ما تعرفها انت !

– ليس بوسعك أن تعرفها ، مادمت بلا دين ، فان الدين وحده هو الذى يعرفنا بماهية الطبيعة ، ومواطن نفعها ، وكيف تطرق اليها النقص . وفيما عدا ذلك لا تنتظر منى ردا ، فان الله لم يمنحنى من حرارة اللهجـــة ، ولا من قوة الذكاء ، ما يكفى لتفنيد اغلاطك . واخشى أننى لن ازودك – بعجزى هذا – الا بفرص للتجديف ، وأسباب للجحود .. ولمـا كنت أحس رغبة جامحة لخدمتك ، فاننى أخشى أن لا اجنى ثمرة لهذا البر المستتر سوى ...

وقطع عليه الحديث هرج عظيم ، بدأ عند رأس الصف ، معلنا جميع الجوعى الواقفين أن المخبز قد فتح ابوابه . وبدأ الصف يتحرك الى الأمام ، ولكن فى بطء شديد .. وكان احد رجال الحرس الوطنى – فى زيه الرسمى – يدخـــل المشترين واحدا بعد آخر . وكان الخباز وزوجته وابنه

يتلقون العون فى بيع الخبز من اثنين من مندوبى الجمعية العامة ، وقد لف كل منهما ذراعه اليسرى بشريط ذى ثلاثة الوان (٤٢) .. وكانا يهتمـان بالتـأكد من أن المشترين ينتمون الى القطاع ، وأن كل واحد لا يتلقى سوى النصيب الكافى لاطعام من يعولهم .

***

كان المواطن « بروتو » يتخذ من السعى وراء السرور غايته الوحيدة فى الحياة .. كان يرى ان العقل والحواس هى صاحبة الحكم الوحيدة فى غياب الله ، ولم يستطع ان يهتدى الى سواها . فلما وجد فى آراء الرسام شيئا من التطرف الذى يجاوز المعقول ، وفى آراء رجل الدين شيئا من البساطة أكثر مما يروق له تماما ، آثر هـذا الرجل العاقل أن يطبق مذهبـه على مسلكه فى تلك الظروف الراهنة ، ويدخل شيئا من التسرية على نفسه فى هـذا الانتظار الطويل ، فأخرج من جيب سترته «الردينجوت» ــ التى كانت فى لون البراغيث ــ اشـعار «لوكريس» التى ظلت اشهى متعة له ، ومبعث الرضى الحقيقى لديه . وكان الغلاف الجلدى الاحمر قد تجعد وتثنى لكثرة الاستعمال .
وقد كان المواطن ((بروتو)) من الحكمة بحيث محا عن الغلاف شعار أسرته ، الذى كان مؤلفا من رسم بالذهب لثلاث جزر صغيرة اشتراها أبوه فى مقابل مبالغ له كانت فى حكم الضائعة .

وفتح الكتاب عند جزء روى فيه الشاعر الفيلسوف ــ

---

(٤٢) كانت الالوان الثلاثة ــ الاحمر والابيض والازرق ــ هي شعار الثورة الفرنسية .

الذى كان يبغى ابراء الناس من متاعب الحب التى لاطائل منها — كيف فاجأ امرأة بين أذرع خادماتها ، فى حال تؤذى شعور أى عاشق . وراح المواطن «بروتو» يقرأ هذه الأبيات ، دون أن يشغل بذلك عن القاء النظرات على عنق جارته الجميلة المستتر وراء خصلات ذهبية ، ولا عن ان يتنسم — فى نشوة — عبير بشرتها البضة المتسخة ! .. والشاعر «لوكريس» لم يؤت سوى ناحية واحدة من نواحى الحكمة ، أما تلميذه «بروتو» فقد أوتى نواحى كثيرة ! .. ولقد راح يقرأ ، ويتخذ خطوتين الى الامام فى كل ربع ساعة .. وكان صخب الثرثارات — عن غلاء الخبز والسكر والبن والشمع والصابون — يطرق عبثا اذنيه اللتين كانتا تطربان للنظم الموزون ذى القوافى العديدة ، التى صيغ فيها الشعر اللاتينى . وعلى هذا النحو ، بلغ عتبة المخبز وهو ناعم البال . وفوق رأسه ، لمح «ايفاريست جاميلان» — الذى كان خلفه — حزمة من القمح الذهبى ، ثبتت الى حديد الكوة التى تعلو الباب .

ودخل الحانوت بدوره ، فاذا السلال والصناديق قد خوت ، ودفع اليه الخباز بالقطعة الوحيدة من الخبز التى تبقت ، والتى كانت تزن ليبرتين . ودفع ايفاريست الثمن ، ثم اغلق الخباز الباب فى اثره ، خشية أن يغير القوم الصاخبون على المخبز . **على أنه لم يكن ثمة ما يدعو الى الخوف ، فان هؤلاء الفقراء — الذين تعلموا الطاعة على ايدى طغاتهم السابقين ، وعلى ايدى محرريهم الراهنين — داروا على اعقابهم ، وجروا اقدامهم وقد نكسوا رؤوسهم !**

وما أن بلغ «جاميلان» ناصية الشارع ، حتى ابصر المواطنة « دومونتي » جالسة على حجر ، ورضيعها بين

ذراعيها . وكانت جامدة ، وقد غاض لونها ، ونضب دمعها، وزاغ بصرها .. أما الطفل فقد راح يمتص أصبعه فى نهم . ووقف جاميلان لحظة أمامها حائر مرتبكا ، فلم يبد عليها أنها رأته . وغمغم ببضع كلمات ، ثم أخرج مطواته من جيبه ــ وكانت مطواة ذات نصل معقوف ومقبض من العظم ــ فشطر خبزة نصفين ، وضع أحدهما على ركبتى الأم الشابة ، التى تطلعت فى دهشة .. ولكنه كان قد انعطف وراء ناصية الشارع !

واذ دخل داره ، الفى أمه جالسة الى النافذة ؛ ترفو الجوارب . فوضع بقية الخبز فى يدها ، وقال بمرح : « الا اغفرى لى يا أمى الطيبة ، فقد أضنانى الوقوف طيلة هذا الوقت ، وارهقنى الحر ، فاذا بى آكل نصف نصيبنا من الخبز ؛ لقمة اثر لقمة ، اثناء سيرى فى الشارع ، وفى دخول البيت . فلم يكد يبقى سوى نصيبك أنت !»

وتظاهر بأنه ينفض فتات الخبز عن سترته !

الفصل السابع



• قالت المواطنة الارملة جاميلان ، مرددة قولا جد قديم : « اننا لطول أكل الكستناء ، سنصبح .. كستناء!»

كانت فى ذلك اليوم – الثالث عشر من يولية – قدتناولت وابنها غداء من حساء الكستناء . وفيما هما يأتيان على هذه الوجبة التقشفية ، دفعت الباب سيدة ، فملأت المرسم فجأة ببهرجها وشذى عطورها . وعرف «ايفاريست» لتوه أنها المواطنة «روشمور» . وظن أنها أخطأت الباب ، وانها كانت تنشد المواطن «بروتو» – صديقها القديم – فخطر له أن يرشدها الى المخزن الذى كان يقيم فيه هذا ، أو ان يناديه ليوفر على المرأة الانيقة مشقة سلم كسلم الطاحون . غير أنه بدا – من أول الامر – أن مهمتها

كانت لدى ((ايفاريست جاميلان)) ذاته . فقد أعربت عن سعادتها لمقابلته ، ولاستطاعتها ان تؤدى له خدمة ما . ولم يكن كل منهما غريبا عن الآخر تماما ، اذ كانا قد تقابلا عدة مرات فى مرسم «دافيد» ، وفى احدى جلسات الجمعية العامة ، وفى منتدى اليعاقبة ، وفى مطعم «فينوا» .. وقد استرعى انتباه المواطنة الى «ايفاريست» جماله ، وشبابه، ومظهره المثير للاهتمام .

وكانت المواطنة «روشمور» ترتدى قبعة ذات شريط التف بشكل حلزونى ، وذات ريش ، وكأنها قبعة رسمية لمندوب ديبلوماسى .. كما كانت مثقلة بالمساحيق ، مخضبة، مخططة ، معطرة ، وما زال لحمها يبدو نضرا تحت هذه الالوان المستعارة .. **كانت هذه الزينة الصارخة المصطنعة التى شاعت اذ ذاك ــ تنم عن اللهفة التى تملكت النساء للاستمتاع بالحياة ــ فى تلك الايام ــ قبل ان تدهمهن الايام المقبلة غير المؤكدة الظروف ..** وكان للجزء الأعلى من ثوب المواطنة قلابتان عريضتان ، وحواف واسعة ، مرصعة بأزرار فولاذية كبيرة .. وكان الثوب بلون الدم ، ولا يملك أحد أن يميز ما اذا كان ينم عن طابع ارستقراطى أو عن طابع ثورى .. وما اذا كان لونه يرمز الى دماء الضحايا ، أو الى شعار الجلاد .. وكان برفقتها شاب عسكرى ، من فرقة الحرس .

واخذت تطوف بالمرسم ، وفى يدها عصا طويلة من الصدف ، وقد بدت فارعة ، جميلة ، عريضة المنكبين ، ممتلئة الصدر . وأخذت تفحص لوحات الرسام وهى تقرب من عينيها الرماديتين ، منظارها الذهبى ذا العدستين .. ضاحكة ، متهللة ، وقد استخفها الاعجاب بجمال الفنان ،

وراحت تطرى لتتلقى بدورها الاطراء .. وتسـاءلت :
« ما هذه اللوحة الرفيعة ، المؤثرة ، التي تمثل امرأة رقيقة المشـاعر ، وجميلة ، بالقرب من شخص مريض ؟ » .
فأجاب جاميلان بأنها كانت تمثل «اوريست» حين أيقظته أخته ، وأنها جديرة بأن تكون أقل لوحاته رداءة ، اذا قدر له أن يتمها .. وأضاف قائلا :

ــ ان الموضوع مأخوذ عن قصة «أوريست» التى وضعها «يوريبيد» . فلقد قرأت ــ فى ترجمـة قديمـة لهـذه المأساة ــ منظرا أخذ بمجامع قلبى اعجـابا .. ذلك هو المنظر الذى ترفع فيه «اليكترا» أخاها الشاب عن سرير أوجاعه ، وتمسـح الزبد الذى طفح من فمه ، وتقصى عن عينيه الشعر الذى كان يحجب عنهما النور ، وتتوسل الى اخيها الحبيب ان يصغى الى ما كانت توشك أن تقوله له فى هدوء انفعالاته المهتاجة .. وكنت كلما قرأت هـذه الترجمة ، مرارا وتكرارا ، أحس غشاوة تحجب عنى الصور الاغريقية ، دون أن أملك تبديدها .. وخيل الى أن الأصل ولا بد أكثر اثارة للنفس ، وانه يجرى بأسلوب آخـر . وشعرت برغبة ملحاحة فى أن أؤلف فكرة دقيقة لنفسى ، فرجوت السيد «جايل» الذى كان يلقى دروسا فى اللغة اليونانيـة ، فى «الكوليـج دى فرانس» ــ وكان ذلك فى سنة ١٧٩١ ــ ان يشرح لى هذا المنظر كلمة بكلمة ، فشرحه لى حسب طلبى . واذ ذاك تبينت أن القدامى اكثر بساطة وألفة مما نتصور .. فهنا قالت اليكترا لاوريست: «ياأخى العزيز ، ما أشد ما سببه لى نعاسك من فرح ! أفتريد ان أعينك على النهوض ؟ » .. واجاب أوريست : **«أجل ، ساعدينى ، وخذينى بين ذراعيك ، وامسحى هذه البقية**

من الزبد الملتصقة حول فمي وعيني . اسندى صدرى الى صدرك واقصى عن وجهى الشعر الملبد ، اذ انه يحجب عيني .. » . وملأ نفسي هذا الشعر الفتى الحى ، وهذه التعبيرات الساذجة القوية ، فرسمت اللوحة التى ترينها يا مواطنة !

ولقد اعتاد الرسام أن يوجز فى الحديث عن لوحاته ، ولكنه لم يقتضب فى حديثه عن هذه اللوحة بالذات. وشجعته اشارة أبدتها له المواطنة روشمور ، وهى ترفع منظارها ، فاستطرد يقول : « لقد أوضح هنيكان فورات «أوريست» فى براعة ؟ ولكن أوريست يهز قلوبنا فى أساه أكثر مما يهزها فى هياجه . اى حظ كان حظه ! ... فانه بدافع من شفقة البنوة ، ومن اطاعة لأوامر قدسية ، ارتكب هذا الجرم الذى كان الآلهة خليقين بأن يحلوه من وزره ، ولكن البشر لم يغتفروه له قط . ولكى ينتقم للعدالة المهدورة ، جحد الطبيعة ، وخرج عن انسانيته ؟ ومزق أحشاءه بيديه . ولكنه ظل أبيا تحت أثقال عمله الفظيع ، والصالح كذلك .. وهذا ما أردت أن ابينه فى هذه اللوحة ، اذ جمعت بين الأخ والأخت ! »

وأقترب من اللوحة ، وتأملها فى رضى ، ثم قال : « ان بعض أجزاء منها قد قاربت الأكتمال .. مثل راس أوريست وذراعه » .

ـ انها لوحة رائعة .. وان أوريست ليشبهك أيها المواطن جاميلان !

فقال الرسام بأبتسامة رزينة ! « اترين ذلك ؟ »

وتقبلت المقعد الذى قدمه اليها جاميلان ، بينما وقف الضابط الشاب الى جوارها ، ويده على مسند المقعد الذى

جلست عليه . وهو امر أبدى مدى ما فعلته « الثورة »
فما من رجل كان يمس في العهد الماضي مقعدا جلست فيه
امرأة ، ولو بأصبعه ، بحكم مـا كان ينشأ عليه من قيود ـ
شديدة احيانا ـ تحف بآداب السلوك ، وتجعله يقـدر ان
التزام التحفظ في الأماكن العامة أمر ذو قيمة فذة لأي سر
يؤدي أهماله الى فقدان الأحترام .

***

كانت « لويز ماشيه دي روشمور » أبنة ضابط ممن كانوا
موكلين بخدمة الملك في الصيد ، وأرملة أحد رجال القانون ،
والصديقة الوفية للمالي « بروتو ديزيليت » زهـاء عشرين
عاما .. وقد أعتنقت أخيرا المبادئ الحديثة ، فرؤيت في شهر
يوليو سنة ١٧٩٠ ــ وهي تحفر الارض في (شان دي مار).
**وقد حملها ميلها الشديد الى السلطان ، الى التشيع بسهولة
للجيرونديين وللجبليين ، بينما كانت روحها المتسامحة ،
وتهورها في التحمس ، وما أوتيته من موهبة للتـآمر ..
كانت هذه كلها تربطها بالارستقراطيين وخصوم الثورة ، في
الوقت ذاته !..** كانت امرأة كثيرة الظهور في المجتمعـات ؛
تغشى الحانات والمسارح والمطاعم التي تقـدم أبدع انواع
الشواء الشائعة ، والمنتديات الصاخبة ، والصـالونات ،
وادارات الصحف ، والاجتماعات السرية للجان .. ولقد
واتتها الثورة بأمور جديدة ، وبطرائف مسلية ، وابتسامات
ومسرات ، واعمال ومشروعات مثمرة .. كانت تتدخل في
المؤامرات السياسية وغير السياسية ، وتعزف على القيثارة
وترسم المناظر الطبيعية ، وتغني أهازيج الهوى ، وتؤدي
الرقصات الاغريقية ، وتقيم مآدب العشاء ، وتستقبل في

دارها جميلات النساء ـ مثل كونتة دي بوفور ، والممثلة ديكوان ـ وتلازم مائدة اللعب والميسر طيلة الليل ، ثم تجد ـ مع ذلك ـ وقتا تبدي فيه عطفها ولطفها لاصدقائها . كانت شديدة الفضول ، كثيرة العمل والكلام ، قوية الفتنة ، محبة للهو ، خبيرة بالرجال ، جاهلة بالجماهير . **وقد كانت بعيدة عن الاراء التى تجهر بها ، بقدر بعدها عن الاراء التى كان عليها أن تتنكر لها .. ولم تكن تفهم شيئا ـ على الاطلاق ـ مما كان يجرى فى فرنسا ، وان راحت تبدى ادراكا بكل شىء** .. وكانت جريئة ، ممتلئة بالجسارة والاقدام ، بفضل جهلها بما فى ذلك من اخطار ، وبفضل ثقة لاحد لها بمدى سلطان مفاتنها !

وكان العسكرى ـ الذى رافقها ـ فى شرخ الشباب ، تعلو راسه خوذة نحاسية ، مزدانة بجلد الفهد ، وقد حليت قمتها بريشة حمراء ، وصيغت على شكل طائر استرسلت على ظهره ذؤابة طويلة ، بشعة .. وكانت سترته حمراء ، بشكل الصديرى ، وقد انسدلت الى خاصرته حرصا على أن لاتخفى رشاقة انعطافهما .. وكان يتدلى من خاصرته سيف ضخم ذو مقبض براق على شكل راس صقر ، واحتضن عضلات ساقيه الرشيقتين سروال يميل لونه الى الزرقة ، وقد تخللت النقوش الكثيرة على فخذيه ، خيوط مجدولة داكنة الزرقة . فبدا الشاب كراقص فى زى عسكرى أنيق ، فى لوحة تمثل « أخيل فى سيروس » ، او « زفاف الاسكندر » وقد رسمها احد تلاميذ « دافيد » متعمدا أن يلف القوام باحكام .. **وتذكر « جاميلان » ـ فى شىء من الابهام ـ أنه قد رآه من قبل ، فقد كان هذا العسكرى ـ فى الواقع ـ هو الذى صادفه منذ خمسة عشر يوما ، وقد راح يخطب فى**

الجمهور من شرفات مسرح الامة .

وقدمته المواطنة روشمور قائلة : « المواطـــن هنرى عضو اللجنة الثورية ، شعبة حقوق الانسان » .. وكان تستبقيه دائما فى اذيالها ، مرآة للحب ، وشهادة حيـ على وطنيتها .

وهنأت المواطنة الرسام بمواهبه ، وسألته عما اذا كا يقبل أن يرسم بطاقة لتاجرة للازياء كانت تهتم بأمرها ، واقترحت لذلك رسما مناسبا ، لامرأة تجرب وشاحا ا مرآة كبيرة ــ مثلا ــ أو عاملة شابة تتأبط صـــندوقا صناديق القبعات . ولقد ذكروا لها ابن فراجوران ، ودو الشاب ، كما ذكروا برودوم ، على انهم خير من يستطيع تحقيق عمل فنى صغير من هذا القبيل . ولكنها آثرت تقصد المواطن ايفاريست جاميـلان . بيد انها لم تمض د ـر شىء من التفصيلات ، فى هذا الموضوع ، مما اظهر ان لم تطلب الرسم الا لكى تفتح باب الحـــديث فحسب والواقع انها كانت قد جاءت لأمر آخر بعيد عن هـذا ك البعد . فقد طلبت من المواطن جاميلان صنيعا .. اذ ا علمت بما بينه وبين المواطن ((مارا)) من تعارف ، فجا تسأله أن يقدمها الى ((صديق الشعب)) ، الذى كانت تر أن تلقاه . فأجاب « جاميلان » بأنه كان اضـأل شـأنا أن يقدمها ، لاسـيما وهى فى غير حاجـة الى اكثر من تتقدم بنفسها الى «مارا » ، فما كان هـــذا ــ بالرغم استغراقه فى الاعمال ــ بالرجل الذى يشق على امرىء بلقاه ، كما قيل لها . واردف جاميلان قائلا : « لسـو يستقبلك أيتها المواطنة ، اذا كنت منكودة الحظ ، الا قلبه الكبير يتأثر بالمصـــائب ، ويرثى للآلام .. ولسـ

تقبلك اذا كانت لديك بعض أسرار تفضين بها اليــه من
في الصالح العام ، فقد كرس أيامه للكشف عن الخونة !»
وأجابت المواطنة «روشمور» بانها تسعد اذا قدر لهـا
تحيى فى شخص «مارا» مواطنـا عالى الشـأن ، أدى
لاد خدمات جليله ، وبوســعه أن يؤدى لهـا مزيدا من
مات اجل .. وقالت أنها تطمع فى ان تمكن هذا المشرع
الاتصــال برجال حسنى النوايا ، ومحبين للبشرية ،
تهم الأقدار بثروات تمكنهم من ان يمدوه بوسائل جديدة
ضاء حبه المتأجج للانسانية .. واضــافت قائلة : « من
ستحب تمكين الأغنيــاء من التعاون على تحقيق الرخاء
شعب ! » ..

***

وحقيقة الأمر ان المواطنة كانت قد وعدت « مورهارت »
بالى بأن تمكنه من تنــاول العشــاء مع « مارا » . وكان
مورهــارت » سويسريا كصــديق الشعب ، أشرك معــه
دا من نواب المؤتمر — جوليــان نائب تولوز ، وديلوناى
ب انجير ، والراهب الــكابوشى السابق شــابو — على
مضاربة على أسهم شركة جزر الهند . وكانت الحيلة غاية
البساطة ، تتمثل فى العمــل على تخفيض سعر هــذه
سندات الى ستمائة وخمسين ليبرة ، بطرق احتيالية ،
تمهيدا لشراء أكبر عدد منها بهذا السعر ، ثم رفعها بعــد
ك الى اربعة آلاف أو خمسة آلاف ليبرة ، بوسائل تشيع
طمانينة فى النفوس . ولكن شــابو وجوليان وديلوناى
تضحــوا ، وكانت الشــبهات تحوم حول لاكروا ، وفابر
جــلانتين ، بل ودانتــون نفســه . ومن ثم راح زعيم
استقلاليين — البارون دى باتز — يبحث عن اعوان جدد

فى المؤتمر ؛ واوعز الى المصرفى «مورهارت» بمقابلة «مارا».

وما كانت هذه الفكرة بالغريبة ـ كما يبدو لاول وهلة ـ بالنسبة للاستقلاليين المعادين للثورة . فقد كان هؤلاء القوم يضطرون دائما الى التواطؤ مع ذوى السلطان فى تلك الايام . وقد كان « مارا » ـ بشهرته الشعبية ، وقلمه ، وشخصيته ـ ذا نفوذ منيع !.. كان تألق الجيرونديين قد خبا ، واتباع « دانتون » قد اكتسحتهم العاصفة فلم يعودوا فى الحكم ... وكان روبسبيير ـ معبود الشعب ـ ذا نزاهة يغار عليها ، وتنتهبه الهواجس من اجلها ، فهو لايدع سبيلا لشيء أن يمسها .. **لذلك لم يكن ثمة بد من الالتفاف حول « مارا » ، وتعزيز آماله فى اليوم الذى يصبح فيه ديكتاتورا .. وكان كل شيء ينبيء بذلك : شهرته ، وطموحه ، ومبادرته الى التحمس لانتهاج أعظم الوسائل ..** وكان من المحتمل أن يقر « مارا » ـ فى النهاية ـ النظام والأمن ، والأحوال المالية ، والرخاء .. وكم من مرة سما وتفوق على اولئك المتهوسين الذين كانوا يبارونه فى الوطنية .. وقد حمل ـ منذ زمن ـ على المتعصبين للثورة بمثل ما كان يحمل على المعتدلين تقريبا . وبعد أن أهاج الشعب وحمله على شنق المحتكرين فى حوانيتهم المليئة بالسلع ، عاد فدعا المواطنين الى الهدوء والتعقل ، واصبح من رجال الحكم !

وبالرغم من بعض الضجيج الذى اثير حوله ـ كما اثير حول غيره من رجال الثورة جميعا ـ فان هؤلاء المتوسلين بالذهب لم يكونوا يرونه قابلا للرشوة ، ولكنهم أدركوا أنه كان مغرورا بنفسه ، سهل الاقتناع . فراودهم الأمل فى اكتسابه بألوان الملق ، وبالتظاهر بالانصياع له ، بوجه خاص .

وعولوا على أن يسلطوا — بفضـله — البرودة والحرارة على جميع الاوراق المـالية التي قد يرغبون فى شرائها ثم اعادة بيعها ، وأن يسـوقوه الى خدمة مصالحهـم وهو يظن انه لا يعمل الا للصالح العام !

وآلت المواطنة « روشمور » على نفسها أن تجمـع بين الصحفى المشرع ورجل المـال ، فقد كانت وسيطة عظيمة ، لاسيما وانهـا كانت لا تزال فى سن تسمـح بالمغـامرات الغرامية .. وصور لها خيالها الارعن هذا الرجل الوحشى الفطـرة — الذى كانت يداه لا تزالان مخضبتين بدمـاء سبتمبر — منغمسا مع فريق رجـال المـال الذين كانت وسيطة لهم ، وقد انساق بمشاعره — بل وبتحمسه — لتيار المضاربة ، فى هذا الوسط الذى كانت تعتز به .. وسـط المحتكرين ، والمتعهدين ، والجواسيس الاجانب ، والمقامرين والغـوانى ! .. ومن ثم الحت على المواطن جاميـلان كى يقودها الى دار « صديق الشعب » ، الذى كان يقطن شارع (ديه كورديلييه) ، بجوار الكنيسة ، غير بعيـد عن دار جاميلان . وبعد أن أبدى بعض التمنع ، انصاع الرسـام لرجاء المواطنة .

وأبى الفارس هنرى أن يرافقهما — اذ دعى لذلك — متعللا بانه كان يعتزم الاحتفاظ بحريته ، لاسيما ازاء المواطن «مارا» الذى ادى — بلا مراء — كثيرا من الخدمات للجمهورية ، ولكنه كان قد بدأ يهن ويفتر .. أو لم يكن هو الذى نصح الشعب الباريسي — فى وريقته — بالاستسلام ؟! .. وراح الشاب ((هنري)) ينعي — بصـوت حزين وزفرات حرى — الجمهورية المغدورة بأيدي أولئك الذين وضعت فيهم أملها .. إذ همع ((دانتون)) فكرة فرض ضريبة على الاغنياء ،

وعارض ((روبسبيير)) باستمرار لجان الثورة ، وقد
((مارا)) بنصائحه الرعديدة على تحفز المواطنيين .. وارد
الشاب صائحا : «أواه !.. لكم يبدو هؤلاء الرجال ضعافا
قيسوا بليكلرك وجاك رو .. رو ! ليكلرك ! لقـــد كنتما
الصديقين الصادقين للشعب ! »

ولم يسمع « جاميلان » هذه العبارات التي كانت كفيا
بأن تثير حنقه ، اذ كان قد ذهب الى الحجرة المجاورة
ليرتدى حلته الزرقاء .. وقالت المواطنة « روشـــمور
للمواطنة جاميلان : « لك أن تفخرى بأبنك ، فهـــو عظ
بمواهبه ويخلقه ! »

فأدلت المواطنة جاميلان ــ ردا على ذلك ــ بشهادة طي
عن ابنها ، دون أن تغلو فى أطرائه امام سيدة من الطبقة العل
اذ كانت قد تعلمت فى طفولتها ان أول واجب على الصغ
هو أن يتواضعوا أمام الكبار !.. وكانت ميالة الى الشكوى
ولديها المورد الذى لا ينضب ، وقد كانت تجد فى شكايا
تسرية لآلامها ، فكانت تفضى بمتاعبها ــ فى اسهاب ــ لأولئ
الذين كانت تظنهم قادرين على ان يخففوا عنها ، وقد لاح
لها مدام دى روشمور من هذا الفريق . ومن ثم فقد انتهز
هذه المناسبة المواتية ، وروت لها ضائقة الام والابن ، اللذ
كانا يتضوران جوعا .. اذ لم يعد هناك من يشترى لوحا
فنية ، وقد قتلت الثورة التجارة وكأنها ذبحتها بسكين .
وصارت حاجات المعيشة نادرة ، وخرجت أسعارها عن طوق
الناس ..

وراحت العجوز تسرد همومها بكل ما لشفتيها من مرونة

اشكايات . وانصرفت الى تحريك شجون السيدة ــ التى
وجدتها غنية واسعة النفوذ ــ فى اقصر وقت ممــكن ،
لتثير اهتمامها بأمر ابنها .. وكانت تشعر بأن جمـــــال
« ايفاريست » يعاونها على استمالة عطف امراة طيبة المنبت
.. والواقع ان المواطنة « روشمور » ابدت عواطف رقيقة ،
وتأثرت لمجرد التفكير فى آلام ايفاريست وامه ، وفكرت فى
وسائل التخفيف عنها ، فعزمت على ان تحمل الاغنياء من
صدقائها على شراء لوحات الرسام . وقالت وهى تبتسم :
« ذلك لانه لا تزال ثمة اموال فى فرنسا ، ولكنها مخبأة !» ..
فضلا عن ذلك ، فقد عولت على أن تحصل لايفاريست على
عمـل لدى « موورهارت » ، أو لدى الشقيقين « بيريجو » ،
او على منصب لدى أحد موردى مطالب الجيوش ، مادامت
دولة الفن قد دالت !.. ثم خطر لها ــ بعد ذلك ــ أن هذا
ليس ما ينبغى لرجل أوتى مثل شخصيته ، فما لبثت بعـد
ان فكرت لحظة ، ان أومأت بما أوحى أنها وجدت العمــل
اللائق به ، وقالت : « لم يعين بعد عدد من المحلفين فى محكمة
الثورة .. ان منصب المحلف او القاضى هو الذى يليق بابنك ،
وانى لعلى صلة بأعضاء لجنة الامن العام ، واعرف روبسبيير
الاكبر ، وكثيرا ما يتناول اخوه العشاء على مائدتى . لسوف
احدثهم .. سأتحدث الى مونتانيه ، وديما ، وفوكييه .. »

ورفعت المواطنة جاميلان أصبعها الى شفتيها ــ وهى
متأثرة ، شاكرة ــ اذ ولج « ايفاريست » المرسم . وما لبث
ان هبط مع المواطنة « روشمور » السلم المعتم ، الذى كست
درجاته ــ المصنوعة من الخشب والبلاط ــ طبقة عتيقة
من القذارة ..

***

وفى (البون نيف) ــ حيث مالت الشمس الى المغيب ، فاستطال ظل القاعدة القائمة التى تحمل تمثال « الجواد البرونزى » ، والتى أصبحت مزدانة بألوان علم الامة ــ وقف حشد من أبناء الشعب ، رجالا ونساء ، ينصتون فى جماعات صغيرة الى مواطنين كانوا يتكلمون بأصوات خفيفة .. وكان الحشد بادى الجزع ، مخلداً الى صمت كانت تخرقه ــ بين آن وآخر ــ أنات وصيحات مغضبة . وانطلق كثيرون ، يجدون السير مسرعين نحو شارع (تيونفيل) ، الذى كان يسمى ــ من قبل ــ شارع ولى العهد .. **وإذ اندس « جاميلان » فى احدى هذه الجماعات ، سمع أن « مارا » قد أغتيل ! .. وشيئا فشيئا ، تأكد النبأ واتضحت تفصيلاته .. فلقد أغتيل « مارا » فى حوض استحمامه ، بيد امرأة جاءت على عجل من (كاين) ، لترتكب هذه الجريمة !.. وكان البعض يعتقدون أنها هربت ، ولكن الغالبية قالت أنها أعتقلت .**

وبدا جميع من أحتشدوا هناك ، أشبه بقطيع من الاغنام بلا راع !.. وقد راحوا يرددون فى خواطرهم : « مارا المرهف الحس ، المحب للانسانية والخير .. مارا لم يعد موجودا ليتولى قيادتنا ، وهو الذى لم يخطىء قط ، والذى حدس كل شىء قبل وقوعه ، وجرؤ على أن يكشف كل شىء !.. ترى ما العمل ؟ وماذا يحتمل أن يصير اليه الامر ؟ ... لقد فقدنا ناصحنا ، والمدافع عنا .. فقدنا صديقنا ! » .. كانوا يعرفون من أين أنبعثت الطعنة ، ومن الذى وجه ذراع تلك المرأة ، فراحوا يغمغمون فى توجع : « لقد طعنت مارا الايدى المجرمة التى تبغى هلاكنا . أن موته نذير بمذبحة لجميع البرلمانيين ! »

وتباينت الاقوال عن ظروف هذه الوفاة المفجعة ، وعن آخر أقوال الضحية .. وتطايرت الاسئلة عن القاتل الذى لم يعرف عنه سوى أنه كان امرأة شابة أوفدها الاتحاديون الخونة . وأقسمت المواطنات على أعدام المجرمة ، وقد كشرن عن أنيابهن وأشهرن أظفارهن .. **وإذ وجدن فى المقصلة أرحم من أن توفيها جزاءها ، نادين بجلد هذه المرأة المتوحشة ، ودق عظامها على عجلة التعذيب ، وتمزيقها .. ورحن يبتدعن فى عقولهن ألوانا جديدة للتعذيب** . وساقت شرذمة من الحرس الوطنى المسلحين رجلا بادى العزم ، الى مركز اللجنة .. وكانت ثيابه ممزقة ، وجداول من الدم تسيل على وجهه الشاحب . فقد بوغت وهو يقول أن « مارا » كان يستحق المصير الذى لاقاه ، جزاء تحريضه ــ الذى لم ينقطع ــ على النهب والقتل .. واستطاع رجال الحرس أن ينقذوه من غضب الشعب بعناء . واتهم بأنه كان شريكا فى الاغتيال ، فارتفعت الاصوات ــ فى طريقه ــ متوعدة بالموت !

ومكث جاميلان جامداً ، وقد شل الالم ذهنه ، وجفت فى عينيه الابيتين دموع رقيقة ، وامتزج فى فؤاده حزن الابن على أبيه ، بحب الوطن ، وباشفاق على الشعب .. وراح يفكر فى نفسه :

« ها هو ذا مارا ، بعد لوبيلتييه ، وبعد بوردن !.. لقد ادركهمصير الوطنيين : مذابح فى شان دومار ، وفى نانسى ، وفى باريس .. لسوف يفنون جميعا ! » .. وخطر بباله « ويمفن » الخائن الذى كان يزحف ــ من عهد غير بعيد ــ على باريس ، على رأس جحافل من الملكيين قوامهاستون الفا ، والذى كان خليقا بأن يحول المدينة الباسلة المغدورة الى نار

ودم ، لو لم يصده الوطنيون الشجعان عند (فيرنون) .. وكم من أخطار كانت بعد هناك !.. كم من خطط أجرامية ! .. كم من خيانات كانت حكمة « مارا » — وحده — ويقظته كفيلتين بمعرفتها واحباطها !.. فمن بعده يعلن أن «كوستين» كان قد انقلب ونكص على عقبيه وابى أن يخلص (فالنسيين) من الحصار .. وأن « بيرون » كان يتلكأ فى (فانديه) السفلى، تاركا الاعداء يستولون على (سومور) ويحاصرون (نانت) .. وأن « ديللون » كان يخون الوطن فى (أرجون) ؟!

وكان الضجيج الرهيب يزداد حوله ، من لحظة الى اخرى: « **لقد مات مارا ! .. قتله الارستقراطيون !** » . واذا تحول — وقلبه مثقل بالحزن ، والحقد ، والحب — فسار ليؤدى التحية لشهيد الحرية ، دنت منه قروية عجوز ترتدى شالا، لتسأله عما اذا كان السيد « مارا » — الذى اغتيـــل — هو عين القس « مرا » .. اسقف سان بيير دى كيروا !

الفصل الثامن



• كانت الليلة السابقة على العيد ليلة هادئة ، صافية .. وراحت « ايلودى » تتمشى ــ معتمدة على ذراع «ايفاريست» ــ فى ساحة الائتلاف (شان دى لا فيديراسيون) . وكان العمـــال قد أقاموا ــ فى عجلة ــ أعمـــدة ؛ وتمـــاثيل ، ومعـــابد ، وجبـــلا ، ومذبحـــا . . وتمـــاثيل رمزية هائلة: هرقل ــ رمزا للشعب ــ يلوح بهراوته ، و ((الطبيعة)) ترضع ((الكون)) ثدييها اللذين لا ينضبان .. هذه التماثيل قامت فجأة فى العاصمة التى كانت فرنسة تجوع ، والتى كانت ترهف السمع فى ذعر ، للتأكد من أن أصوات المدافع النمسوية لم تكن تتردد على طريق (مو) . وكان الملكيون قد عوضوا توقفهم أمام (نانت) بانتصـــــارات باهرة ،

وأحاطت بالمدينة الثورية الكبيرة (باريس) حلقة من حديد ولهب وبغضاء . ومع ذلك ، فانها راحت تستقبل فى ابهة ـ وكأنها المسيطرة على امبرطورية واسعة ــ وفود الجمعيات العامة الاولى ، التى اقرت الدستور . كان المتحالفون قد هزموا ، وتغلبت الجمهورية ــ موحدة البنيان ، متماسكة الاركان ــ على اعدائها !

وبسط « ايفاريست » ذراعه مشيرا الى الساحة الشعبية، قائلا : « هناك رمى « بايى » الخائن الشعب بالرصاص ، فى ١٧ يوليو سنة ١٧٩١ ، عند قاعدة مذبح الوطن .. واذ شهد قاذف القنابل اليدوية « باسافان » المذبحة ، آب الى داره، فمزق رداءه ، وصاح : « **لقد اقسمت أن أموت مع الحرية، وها أنذا أموت ، اذ لم يعد لها وجود !** » .. واطلق الرصاص على مخه ! »

وفى تلك الاثناء ، كان أهل الفن والعامة يتفقدون الاستعدادات للعيد فى اعجاب ، وقد تجلى على وجوههم حب للحياة أشد كآبة من حياتهم ذاتها ! .. وكانت أعظم الاحداث تتضاءل ــ اذا ما تغلغلت فى نفوسهم ــ وتنكمش بالنسبة اليهم ، وتغدو عقيمة تافهة مثلهم ! .. وكان كل زوجين يسيران حاملين على أذرعتهما ، وجارين بأيديهما ، أو مطلقين أمامهما أطفالا لم يكونوا اجمل منظرا من أبويهما ، ولا تبشر البوادر على أنهم سيصبحون أسعد منهما ، بل انهم قد ينجبون للحياة اطفالا آخرين لا يفوقونهم مرحا ولا جمالا ! .. ومن حين الي آخر، كانت تمر فتاة موفورة الجسم والجمال ، توحى ـ أثناء مرورها ـ للشباب برغبة كريمة ، وللشيوخ بحسرة علي الحياة الناعمة !

وبالقرب من المدينة الحربية ، اطلع « ايفاريست »

صاحبته ((ايلودى)) على تماثيل مصرية صاغها ((دافيد)) على انماط رؤيانية من عهد ((اوجست)) . وسمعا اذ ذاك شيخا باريسيا زان شعره بالمسحوق الابيض (البودرة) ، وهو يصيح لنفسه : ((لكم يخال المرء نفسه على ضفاف النيل !))

وكانت ثمة أحداث هامة قد جرت فى متجر «لامور بانتر» خلال أيام ثلاثة لم تر « ايلودى » فيها صديقها . فان المواطن « بليز » أتهم لدى لجنة الامن العام بالغش فى المؤن التى كان يمد الجيش بها . وكان تاجر الصور معروفا فى القطاع الذى يقطنه ، لحسن الحظ ، فاذا لجنة المراقبة فى قطاع (ديه بيك) تجزم أمام لجنة الامن العام بوطنيته . فلقى انصافا كافيا .. واذ روت « ايلودى » هذا الحادث ، وهى عهتاجة المشاعر ، أردفت : « نحن الآن فى أمان ، ولكن الخطر كان حاميا ، ولم يكن بين أبى والسجن سوى قليل . ولو ان الخطر امتد ساعات قليلة أخرى ، لسألتك يا « ايفاريست » بأن تسعى لدى أصدقائك من أصحاب النفوذ بوساطات من أجله ! »

ولم يجب ((ايفاريست)) . وكانت ((ايلودى)) أبعد من أن تسبر غور صمته . وسار ــ وقد تشابكت يداهما ــ بطول مروج (السين) ، وهما يتطارحان حنانهما المتبادل بلغة « جوليا » و « سان برو » (٤٣) : فقد أتاح لهما « جان جاك » الطيب وسائل توشية هواهما وتجميله .

وكان المجلس البلدى قد حقق المعجزة التى مكنت للرخاء من أن يشمل المدينة الجائعة ليوم كامل . فقد أقيمت سوق بميدان (الانفاليد) ــ على ضفة النهر ــ فراح التجار يبيعون فى أكواخ صغيرة : السجق ، وقطعا من لحم الخنزير ، وامعاء

(٤٣) بطلا قصة جان ــ جاك روسو : ((ايلواز الجديدة)) .

الخنزير المحشــوة ، وافخـــاذ الخنزير المملحـــة ، والمكسوة بزهور الفار ، وفطائر (نانتير) ، وخبزبالتوابل ، وفطائر صغيرة هشة ، وارغفة من ذات الاربعة أرطـــال ، وشراب الليمون ، والنبيذ . كذلك كانت هناك حوانيت تباع فيها الاناشيد الوطنية ، والشارات ، والاشرطة ذات الالوان الثلاثة ،وحافظات النقرد ، وسلاسل من النحاس الاصفر ، وكافة السلع الصغيرة البهيجة . واذ وقفا امام منصةصائغ متواضع ، انتقى « ايفاريست » خاتما من الفضة ، نقشت عليه رأس « مارا » ، مطعمة بخيوط من الحرير ، فدفعـه حول اصبع « ايلودي » .

***

وفى المساء ذاته ، زاره «جاميلان» دار المواطنة «روشمور» بشارع الشجرة الجافة (لاربر سيك) ، اذ كانت قد أرسلت تستدعيه لامر عاجل . ووجدها فى مخدعها ، مستلقية على مقعد طويل ، فى ثوب انيق يكشف عن مفاتن جسمها . ولما كان مسلك المواطنة ينم عن ميول شهوانية ، فان كل ما حولها كان يشي بمفاتنها ، وملاهيها ، ومواهبها : فكانت هنـــاك قيثارة بالقرب من « كلافسنان » (٤٤) ، و « جيتـــار » على مقعد وثير ، واطار للتطريز شدت عليه قطعة مـــن قماش حريرى .. وعلى المنضدة كانت ثمة مسودة لصورة مـــن الحجم الصغير ، وأوراق ، وكتب . وكانت هناك خزانة للكتب غير منظمة ، وكأنما عبثت بهـــا يد جميلة ؛ تخلو من المعرفة أكثر مما تخلو من الذوق .. ومدت السيدة يدهـــا الى

---

(٤٤) آلة موسيقية تداو بالعزف على اوتارها أو بمفتاح زنبركى على السواء .

« جاميلان » ليقبلها ، قائلة : « **سلاما ايها المواطن المحلف!.** **لقد اسلمنى روبسبيير الأكبر — فى هـــذا اليوم بالذات — خطابا فى صالحك ، للرئيس هيرمان** .. خطاب صيغ أبدع صوغ ، فقد جاء فيه — على وجه التقريب — « أوصـــيك بالمواطن جاميلان ، الذى تزكيه مواهبه ووطنيته . وارى واجبا على أن أقدم اليك مواطنا ذا مبـــادىء قويمة ومسلك وطيد فى انتهاج النهج الثورى . وما اراك تهمل اتاحة فرصة لجمهورى كى يكون نافعا .. » . وقـــد حملت هذه الرسالة — دون تلكؤ — الى الرئيس هيرمان الذى تلقانى بأدب جم ، وأقر تعيينك فورا .. لقد أبرم الامر ! »

وقال جاميلان ، بعد لحظة صمت : « **بالرغم من اننى لا امتلك لقمة عيش أتيحها لامى ، الا اننى اقسم بشرف — ايتها المواطنة — اننى لا أقبل مهام المحلف الا لخدمة الجمهورية والثأر لها من جميع اعدائها !** » . ورات المواطنة أن هـــذا الشكر فاترا ، وأن المجاملة جامدة ، فحدست أن « جاميلان » كانت تعوزه الرقة واللطف . ولكن حبها للشباب كان أقوى من ان لا تغفر معه مثل هذه الخشونة . فقد كان «جاميلان» جميلا ، وقد الفته جديرا برعايتها ، وقالت لنفســـــها : « لسوف يصاغ بالشكل الذى ينفعنا ! » . ومن ثم فقد دعته الى تناول العشاء عندها فى كل ليلة ، بعد المسرح . وقالت له: « لسوف تقابل فى دارى ذوى الفطنة والمواهب : ايليفيو ، وتالما ، والمواطن فيجيه الذى يقرض الزجل ببراعة مدهشة .. ويقرأ المواطن « فرانسوا » علينا مسرحيته « باميلا » التى تمثل — فى هذه الاونة — على مسرح الامة . ان اسلوبها رشيق وعفيف ، ككل ما ينساب من قلم المواطن فرانسوا .. ان المسرحية مؤثرة ، حتى أنها تستدر دموعنا . أن « لانج »

الشابة هى التى تقوم بدور باميلا ! »

واجاب جاميلان : « اننى آخذ بحكمك عليها أيتها المواطنة، ولكن مسرح الامة لا يمت للامة الا بالقليل . وانه لمما يسىء الى المواطن فرانسوا أن تؤدى مسرحياته على منصة لوثتها أشمار « لايا » التعسة ، فان فضيحة « صديق القوانين » لم تنس بعد ..! » . وهنا قالت المواطنة : « لك أن تقول عن « لايا » ما شئت ، أيها المواطن جاميلان ، فهو ليس من أصدقائى ! »

وماكانت المواطنة قداستخدمت نفوذها فى تعيين «جاميلان» فى هذا المنصب المرموق عن رغبة خالصة فى الخير .
فلقد كانت تعتزم — بعد الذى فعلته ، وما كانت ترجو أن تفعله فى المستقبل من أجله — أن تشده اليها برباط وثيق ، فتطمئن الى درع تحتمى به من عدالة كان من المحتمل أن يكون لها معها شأن — فى يوم من الايام — اذ أنها كانت ترسل كثيرا من الرسائل الى داخل فرنسا وخارجها .. وكانت هذه الرسائل من قبيل يثير الشبهات .

وقالت أخيرا : « أتذهب الى المسرح أحيانا ، يا مواطن؟ » .
وولج الحجرة — فى هذه اللحظة — الفارس « هنرى » ، وهو أكثر فتنة من « باثيل » الطفل — (٤٥) — وقد ازدان وسطه بمسدسين ضخمين . فقبل يد المواطنة الحسناء التى قالت له : « **ها هو ذا المواطن ايفاريست جاميلان ، الذى قضيت النهار من أجله فى لجنة الامن العام ، والذى لم يعرف لى فى هذا فضلا . فهلا انحيت عليه باللوم ؟** » . فصاح العسكرى : « آه ، أيتها المواطنة ، ارأيت مشرعينا فى (التويليرى) ؟ .. ياله من منظر يثير الغم ! أفكان يليق بممثلى شعب حر أن

---

(٤٥) رمز الصبا الغض والجمال المشرق والنضارة .

يجتمعوا تحت سقف طاغية مستبد ؟ .. أن الثريات التي كانت تضيء ــ من قبل ــ فوق فتن « كابيه » (٤٦) ، ومباذل « انتوانيت » ، تنير اليوم امسيات مشرعينا . انه لأمر يهز اركان الطبيعة ! »

فردت المواطنة قائلة : « هنيء المواطن جاميلان يا صديقى، فقد عين محلفا فى المحكمة الثورية ! » . فقال هنرى : «تهانئى ايها المواطن . يسعدنى أن ارى رجلا له شخصيتك موكلا بمثل هذه المهام . ولكننى ــ والحق يقال ــ قليل الثقة فى هذه العدالة المرسومة وفقا لاساليب نظامية معينة ، والتى انشأها المتدلون من اعضـــــاء المؤتمر . . وفى هــــذه « النيميسيس » ــ (٤٧) ــ اللينة ، الرخوة ، التى تحابى المتآمرين ، وتترفق بالخونة ، ولا تكاد تجرؤ على أن تهوى بقبضتها على انصارالتحالف ، وتخشى أن تستدعى النمسوية الى قفص الاتهام .. لا ، ليست هذه بالمحكمة الثورية التى تنقذ الجمهورية . أنهم لمجرمون اولئك الذين يوقفون ســير العدالة الشعبية فى الموقف المحفوف بالاخطار ، الذى نقفه الان ! »

وهنا قالت المواطنة روشمور : « هنرى .. ناولنى هذه القنينة .. ! »

***

عندما عاد جاميلان الى مسكنه ، وجد امـــه والشيخ « بروتو » يلعبان الورق على ضوء واهن ينبعث من شمعة

---

(٤٦) « كابيه » لقب اسرة « هوج » ، ثالث اسرة ملكية اعتلت عـرش فرنسا . وقد أطلقه الثوار على لويس السادس عشر بعـد خلعه ، ايذانا بارتداده مواطنا عاديا .

(٤٧) ربة الإنتقام .

مدخنة . وكانت المواطنة تعلن ـ بلا تحرج ـ أن معها مجموعة ثلاثية من (الروا) » (٤٨) .. وما ان علمت ان ابنها اصبح محلفا حتى قبلته فى حرارة وابتهاج ، وقد رأت فى ذلك شرفا كبيرا لكليهما ، وأنه سيكفل لهما مما القوت الكافى ، طيلة أيامهما ! .. وقالت : « اننى لسعيدة وفخورة بأن أكون أم محلف ! .. أن العدالة امر جميل ، وهو أكثر الامور لزوما ؛ فبدون عدالة يتعرض الضعفاء للاستياء فى كل لحظة . واعتقد انك ستكون محلفا طيبا يا ايفاريستى ، فقد عهدتك منذ الطفولة ـ عادلا ومنصفا فى كل شىء . ولقد اعتدت أن لا تطيق الغبن ، وأن تقاوم ـ بكل قواك ـ العنف .. واعتدت أن تكون رحيما بالمنكوبين ، وهذا اجمل ما يزين القاضى .. ولكن ، نبئنى يا ايفاريست ، ما الذى سترتديه فى هذه المحكمة العظيمة ؟ »

وأجابها جاميلان بأن القضاة يرتدون قبعة مزدانة بريشات سوداء ، ولكن المحلفين لا يرتدون أى زى رسمى ، وانما يلبسون ثيابهم العادية . فقالت المواطنة : « كان من الافضل أن يرتدوا الوشاح والشعر المستعار ، فهم يبدون بهذا أكثر وقارا .. ومع انك تهمل ـ فى معظم الاحيان ـ ملبسك ، الا أنك جميل ، وتظهر وسيما فى ثيابك . على أن أغلب الرجال يحتاجون الى شىء من الزينة ليظهروا بمظهر يليق بالاعتبار .. من الافضل أن يرتدى المحلفون الوشاح والشعر المستعار ! »

وكانت المواطنة قد سمعت ان مهام المحلفين فى المحكمة تعود عليهم بدخل ما ، فلم تحجم عن السؤال عما اذا كانوا يكسبون ما يكفل لهم عيشا أمينا محترما ، اذ لابد

(٤٨) ورقة اللعب المعروفة بـ « الشايب » و « روا » بالفرنسية معناها الملك .

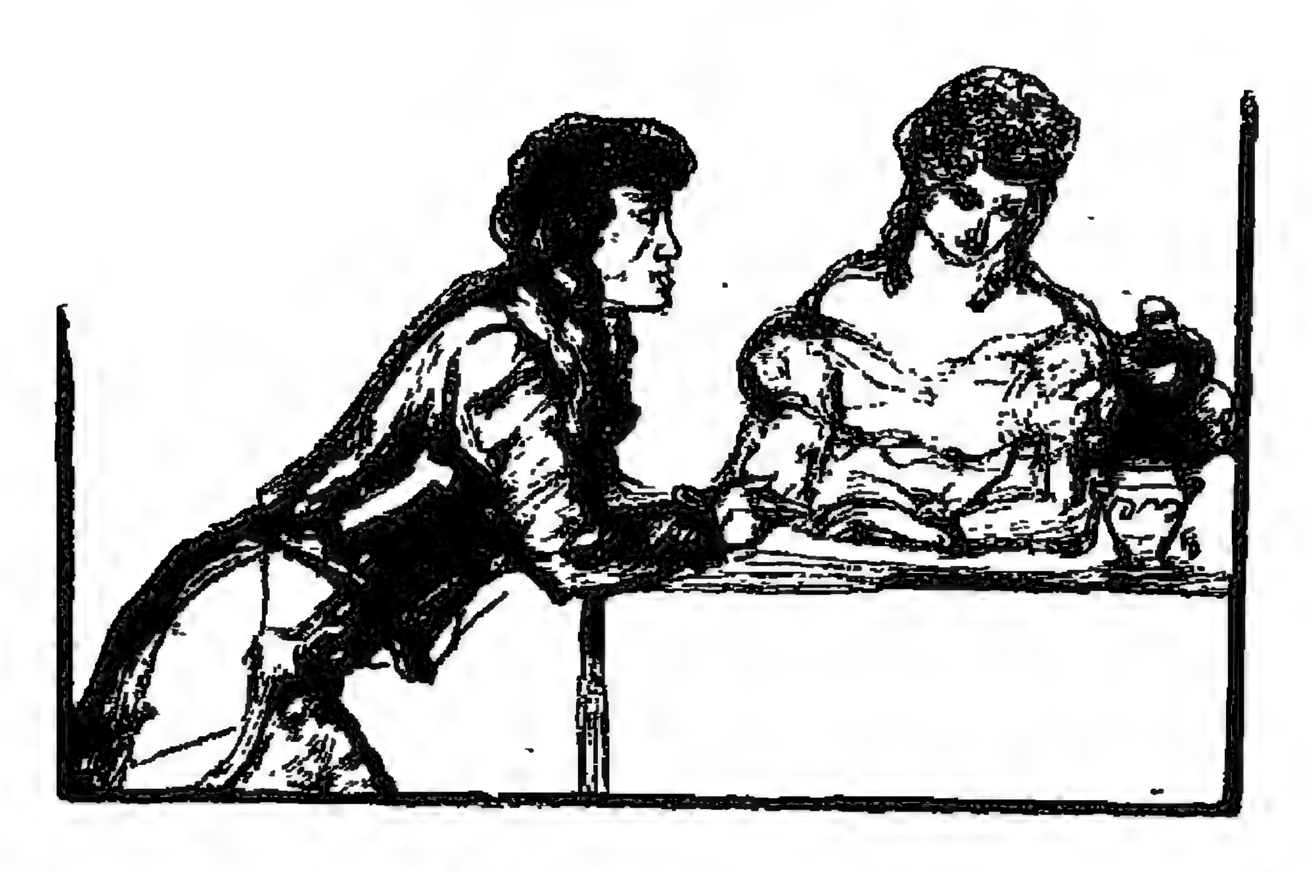
للمحلف ــ كما قالت ــ من أن يظهر بمظهر طيب بين الناس .
وعلمت بارتياح أن المحلفين يتقاضون مكافاة قدرها ثمـانى عشرة ليبرة عن الجلسة ، وأن كثرة الجرائم ضـــد سلامة الدولة تضطرهم الى عقد جلسات كثيرة .

وجمع الشيخ « بروتو » أوراق اللعب ، ونهض قائـلا لجاميلان : « لقد وكل اليك ــ أيها المواطن ــ منصب ذو سلطان ومهابة ، فأهنئك اذ تعير أضواء ضمـيرك ووميك لمحكمة هى أوطد المحاكم قدما وأقلها تعرضا للخطأ ، لانهـا تبحث الخير والشر ، لا فى حد ذاتيهمـا ، وانما فى علاقاتهما بالمصالح المتشابكة ، وبالمشاعر التى تتكشف . سيكون عليك أن تحكم بين الحقد والحب ــ اللذين يتكشفان من تلقـاء نفسيهمـا ــ وليس بين الحق والبـاطل ، اللذين يشق التمييز بينهمـا على عقـول البشر الضعيفة . فاذا حكمت وفقا لوحى قلبك ، فلن تتعرض للزلل ، لأن الحـكم يكون صالحا اذا أرضى عواطفك ، وهى شرعتك القدسية .. ولكن الامر سواء ، ولو كنت رئيسك لحذوت حذو «بريدوا» (٤٩) ، فاركن الى ما يقضى به النرد !.. فان هو الاضمن ، فيمـا يتعلق بالعدالة !

---

(٤٩) شخصية مضحكة ساذجة من ابتداع « رابليه » ، كان صاحبها يلجأ الى النرد (الزهر) يستوحيه قراراته .

الفصل التاسع



• كان على « ايفاريست جاميلان » أن يبدأ مهامه فى ١٤ سبتمبر ، عقب اعادة تشكيل المحكمة ، بحيث تقسم الى أربعة أقسام ، لكل منها خمسة عشر محلفا . وكانت السجون غاصة ، والمدعون العامون يعملون ثماني عشر ساعة يوميا . فان المؤتمر - ازاء هزائم الجيوش ، وثورات الاقاليم ، والمؤامرات ، والدسائس ، والخيانات - قد فرض الإرهاب!

.. كانت الالهة عطشى !

وكان أول اجراء للمحلف الجديد ، أن قام بزيارة تقدير للرئيس « هيرمان » ، الذى فتنه برقة حديثه ، ولطف مسلكه، واذ كان مواطنا وصديقا لروبسبيير ، وكان يقاسمه المشاعر ،

فانه كان يكشف عن قلب حساس ، فاضل ، ونفس مفعمة بالاحاسيس الانسانية ، التى غابت عن قلوب الاجانب أمدا جد طويل ، والتى كانت مبعث مجـــد خالد لديباتى وبيكاريا (٥٠) . وكان يغتبط لشعور الرحمة الذى تجلى ـ فى النظام القضائى ـ فى كبح التعذيب والوسائل التعسفية او القاسية ، ويسره أن يرى أن عقوبة الاعدام ـ التى كانت موضع اسراف فيما مضى ، والتى كانت كثيرا ما تستخدم فى عقاب الذنوب التافهة ـ قد ازدادت ندرة ، وأصبحت تقصر على الجرائم الكبرى، بل انه ألغاها من تلقاء نفسه ـ كما فعل روبسبيير ـ فى كل مالم يكن يمس السلامة العامة . **ولكنه كان يرى أن من الخيانة للدولة أن لا يقضى بالاعدام فى الجرائم التى ترتكب ضد سيادة الدولة ! .. وكان كل زملائه يرون هذا ، اذ كانت الفكرة القديمة ـ التى أقسم بها العهد الملكى ـ عن « حق الدولة » ، مصدر الهام للمحكمـة الثورية .**

وقد ادت ثمانية قرون من الحكم المطلق الى تشكيل عقليات القضاة على هذا النحو .. وعلى مبادىء « الحق الالهى »، راحوا يصدرون أحكامهم على أعداء الحرية !

ومثل « ايفاريست جاميلان » فى اليوم ذاته ، امام المدعى العام ـ المواطن « فوكييه » ـ الذى استقبله فى المكتب الذى أعتاد أن يعمل فيه مع سكرتيره .. وكان رجلا متين البنيان، خشن الصوت ، له عينا قط ، ويحمل على وجهه المشوه بالجدرى ، وعلى بشرته الرصاصية اللون ؛ أمارات القسوة التى تنشأ عن حياة تفرض الجلوس والعزلة على الرجال

---

(٥٠) شارل ديباتى كان رئيسا لبرلمان « بوردو » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . واشتهر بالنـزاهة . و « سيزار دى بيكاريا » كان فيلسوفا ايطاليا ذا ابحاث جنائية ، فى نفس الفترة . ومن مؤلفاته اقتبست كثير من مبادىء القانون الجنائى .

الاقوياء ، الذين خلقوا للعمل فى الهواء الطلق ، وفى الاعمال التى تتطلب جهودا عنيفة . فقد كانت الملفات والاضابير متراصة حوله كجدران القبر .. ومن الجلى انه كان يحب هذه الصومعة الورقية الرهيبة ، التى كانت تبدو كأنها توشك ان تخنقه . وكانت احاديثه احاديث رجـل القضاء الجاد ، الذى وهب نفسه لواجباته ، والذى لا يتجاوز عقله نطاق مهامــه . . **وأنفاسه الحارة تفوح برائحة الخمر التى كان يتناولهـا ليشحذ قواه ، والتى لم تكن تصعد الى مخه ــ فيما يبدو ــ اذ كانت احاديثه تتسم بالجلاء والوضوح ، برغم أنها كانت تنم عن ذكاء متوسط !** .. وكان يقيم فى مسكن صغير فى قصر العـــدالة ، مع زوجه الشابة التى انجبت له توأمين .. وهذه الشابة ، والعمة « هنرييت » ، والخادم « بيلاجى » ، كن جميع أهل داره . وكان يبدى لهؤلاء النسوة لطفا وطيبة .. وقصارى القول انه كان رجلا ناجحـــا فى أسرته ومهنته ، وان لم يؤت آراء كثيرة أو يمتاز بشىء من سعة الافق اطلاقا!

ولم يكن « جاميلان » يقوى على كبح نفسه عن ان يلاحظ ــ فى استياء ــ ان رجال القضاء فى النظام الجـــديد كانوا يشبهون رجال القضاء فى العهد القديم : فى الفكر وطـــرق التفكير . فهكذا كان هيرمان ــ الذى مارس مهام النـــائب العام فى مجلس (آرتوا) ــ وفوكينيه ، الذى كان مدعيا قديما فى (شاتيلية) . اذ احتفظا بطابعهما ، حتى لقــــد خشى « ايفاريست جاميلان » من نكسة ثورية .

وعندما بارح المحكمة ، اجتاز رواق قصر العـــــدالة . وتوقف امام الحوانيت ، حيث كانت كافـــــة الوان السلع معروضة بتنسيق فنى . وفى حانوت المواطنة «تينو» ، تصفح المؤلفات التاريخية ، والسياسية ، والفلسفية : « اغــــلال

العبودية » ، و « رسالة فى الاستبداد » ، و « جـــرائم الملكات » . . وقال لنفسه : « مرحى ! .. هــذه كتابات الجمهوريين ! » . ثم سأل صاحبة المكتبة عما اذا كانت تبيع كثيرا من هذه الكتب ، فهزت رأسها قائلة : « لا يروج سوى كتب الاغاني والقصص ! » . وتناولت كتابا صغيرا من أحد الادراج ، قائلة : « اليك كتاب حسن ! » .. وقرأ ايفاريست عنوانه ، فاذا به : « الراهبة ذات القميص » !

ووجد ـ امام الحانوت المجاور ـ « فيليب ديماهى » ، الذى راح ـ وسط عطور ومساحيق المواطنة « سان جور » ـ يؤكد للتاجرة الحسناء حبه ، فى حنان واناقة اسلوب ، معاهدا اياها أن يرسمها ، سائلا اياها أن تلقاه لحظة فى حـــديقة (التويلرى) فى المساء .. وكان جميلا ، والاغراء ينساب من بين شفتيه ، ويطل من عينيه . فراحت المواطنة « ســان جور » تصغي اليه فى صمت ، وقد غضت بصرها ، ميـــالة الى أن تصدقه !

ولكى يألف المهام الخطيرة المنوطة به ، رأى المحـــلف أن يشهد ـ من بين صفوف الجمهور ـ قضية كانت مطروحة أمام القضاء . . فصعد السلم الذى جلس على درجاته حشد هائل من الناس ـ فى أحد المدرجات ـ ونفذ الى القاعـة القديمة التى كانت مخصصة لبرلمـــان باريس . وكانت القاعة غاصـــة ، وقد أوشك الناس أن يختنقـوا فى سـبيل مشاهدة محاكمة أحد القادة . ذلك لان « المؤتمر » كان فى تلك الايام ـ كما قال الشيخ بروتو ـ « يحذو حذو حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، فيحاكم القادة المهزومين بذنوب القادة الخونة ، اذ ان هؤلاء لم يكونوا يعـــرضون أنفسهم للمحاكمة ! » . وما كان ذلك ـ على ما أضاف بروتو ـ « لأن

القائد المهزوم مجرم بطبيعة الحال ، اذ انه لابد فى معركة من قائد مهزوم .. وانما لانه ما من شيء أقوى مفعولا من الحكم باعدام قائد فى اثارة الحمية فى نفوس القادة الاخرين .. »!

وكان قد مر بمقعد الاتهام عـــدد من هؤلاء العسكريين ذوى الرؤوس الجوفاء ، الصلبة ، ممن أوتوا عقول العصافير فى جماجم الثيران ! .. وكان القائد الماثل للمحاكمة ــ فى هذه المرة ــ لا يعرف عن خطط الحصار والقتال ، التى اشرف على تنفيذها ، أكثر مما كان يعرفه رجال القضـــاء الذين تولوا سؤاله ، فكان الاتهام والدفاع يخوضان فى بيانات عدد الجنود ، وبيانات الاهداف ، وبيانات الذخائر ، وفى حركات الزحف ، وحركات الهجوم المضاد .. وكان حشـــــد المواطنين الذين راحوا يتتبعون هذه المناقشات المبهمـــة اللانهائية ، يرون ــ خلف الرجل العسكرى الغبى ــ الوطن عاريا ، ممزقا ، يعانى الف سكرة من سكرات الموت .. ومن ثم راحوا ــ بالنظر وبالصوت ــ يحثون المحلفين الذين كانوا يجلسون على منصتهم ساكنين ، بأن يجعلوا حكمهم بمثـــابة ضربة قاضية لاعداء الجمهورية !

وشعر جاميلان ــ فى تحمس ــ بان ما ينبغى أن توجه اليه الضربة فى شخص هذا البائس ، انما هما الوحشان الفظيعان اللذان كانا ينهشـــــــان الوطن : التمرد ، والهزيمة ..

وراح يفكر تفكيرا صادقا فى روية ، لمعرفة ما اذا كان هـــذا العسكرى بريئا أو مدانا . ففى الوقت الذى استعادت فيه (فانديه) شجاعتها ، وفى الوقت الذى استسلمت فيـــه (تولون) للعدو ، وفى الوقت الذى تراجع فيه جيش (الرين) امام غزاة (ماينس) ، وفى الوقت الذى كان فيه جيش الشمال ــ المتراجع ــ معرضا لان ينهار تحت قبضة الامبراطوريين ،

والانجليز ، والهولنديين ، المسيطرين على (فالنسيين) .. فى وقت كهذا ، تمس الحاجة الى تلقين القادة أن عليهم أن ينتصروا أو يموتوا ! .. واذ رأى هذا العسكرى المسن ، الذى أذهله الموقف وشل حراكه ، والذى بدا ـ فى الجلسة ـ تائها بين خرائطه ، كما كان تائها فى سهول الشمال ، آثر جاميلان أن يغادر القاعة وهو يتحرق انفعالا ، حتى لا يصيح مع الجمهور : « الى الموت ! »

***

وفى اجتماع الجمعية العامة للقطاع ، تلقى المحلف الجديد التهانىء ، من الرئيس «أوليفييه» ، الذى حمله على أن يقسم على مذبح البارنابيين القديم ـ الذى تحول الى مذبح للوطن ـ أن يخنق باسم الانسانية المقدس كل ضعف بشرى فى فؤاده . فرفع جاميلان يده ، واشهد على قسمه روح « مارا » العظيم ، شهيد الحرية ، الذى رفع تمثاله النصفى أخيرا ـ على أحد أعمدة المكان الذى كان كنيسة من قبل ـ فى مواجهة تمثال « لوبيلتييه » . ودوى فى المكان بعض التصفيق ممتزجا بهمهمات . وكان المجتمعون مهتاجين ، وقد تعالى ـ عند مدخل صحن الكنيسة السابقة ـ ضجيج فريق من أعضاء الجمعية مسلح بالمعاول .. فقال الرئيس : « من المجافاة للروح الجمهورية ، حمل الاسلحة فى اجتماع للاحرار ! » . وأمر بايداع البنادق والمعاول فورا ، فى الغرفة التى كانت ـ فيما مضى ـ خزانة للمخلفات المقدسة .

واحتل منبر الوعظ ـ الذى غدا منبرا للخطابة ، وتوج بقلنسوة حمراء ـ أحدب ذو عين ثاقبة وشفتين منفرجتين ، هو المواطن « بوفيزاج » ـ عضو لجنة المراقبة ـ فقال : « أن القادة يخوننا ، ويسلمون جيوشنا للعدو ؟ ؟

والامبراطوريون يدفعون بفرق من الفرسان حول (بيرون) و (سان كنتان) ، كما أن (تولون) قد استسلمت للانجليز، الذين انزلوا الى البر أربعة عشرألفا من الرجال .. **ان أعداء الجمهورية يتآمرون فى قلب ((الأوتمر)) ذاته .. وان خططا لا حصر لها ، تدبر فى العاصمة ، لتخليص ((النمسوية)). وفى اللحظة التى اتحدث فيها ، تنتشر شائعة بأن ابن ((كابيه)) قد افلت من سجن (التامبل) ، ونقل مظفرا الى (سان كلو)، رغبة فى رفع عرش الطغيان من أجله** . وأن غلاء الاقوات ، وتدهو قيمة الاوراق المالية نتيجة للمناورات والدسائس التى تدبر فى داخل بلادنا ، وتحت أعيننا ، بوساطة عملاء الأجانب .. فباسم السلام العام ، أناشد المواطن المحلف بأن لا تأخذه رحمة بالمتآمرين والخونة ! »

وما أن هبط عن المنبر ، حتى ارتفعت أصوات داخل الاجتماع:« لتسقط المحكمة الثورية! .. ليسقط المعتدلون!» . وصعد المنبر المواطن « ديبون » الكبير ــ النجار بميدان تيونفيل ــ ببدانته وبشرته المتوردة ، قائلا أنه كان تواقا الى ان يوجه للمواطن المحلف سؤالا .. وطلب الى «جاميلان» ان يوضح رايه فى قضية انصار « بريسو » ، وارملة «كابيه» . وكان ايفاريست خجولا ، لا يعرف كيف يتكلم فى الاجتماعات العامة . ولكن العزة الهمته ، فاذا به يقف شاحب الوجه ، ويقول بصوت حاد : ((**انني قاض ، ولست أتبع سوى ضميرى، فكل وعد اقطعه لكم سيكون مخالفا لواجبى . أن على ان اتكلم فى المحكمة ، وان اصمت فى كل ما عداها .. انني لم اعد اعرفكم ، فانى قاض ، والقاضى لا يعرف أصدقاء ولا اعداء !))**

وحبذت الجمعية العامة قوله ، فقد كانت على غرار الجمعيات

طرا ، تضم عناصر متباينة ، فهى لذلك مذبذبة الرأى متقلبة .
ولكن المواطن « ديبون » انبرى للهجوم ، فما كان ليغفر لجاميلان
أن تبوأ منصبا كان هو يصبو اليه . فقال : « اننى أفهم ،
بل وأقر مخاوف المواطن المتلف .. يقال أنه وطنى ، اذن
فله وحده أن يرى ما اذا كان ضميره يسمح له بأن يتخذ
لنفسه مكانا فى محكمة مهيأة للقضاء على أعداء الجمهورية ،
ومعقودة العزم على التنكيل بهم .. انها مؤلفة من آثمين
ينبغى على المواطن الصالح أن يتحاشاهم. الم يثبت أن كثيرا
من محلفى هذه المحكمة قد انساقوا للفساد بسبب ذهب
المتهمين ، وان رئيسها « مونتانيه » قد أقدم على التزوير
لكى ينقذ رأس الفتاة كورداى ؟ »

ودوت جنبات الصالة بتصفيق حاد لهذه الكلمات .
وكانت التصفيقات الاخيرة لا تزال تتصاعد الى السقف حين
ارتقى «فورتونيه تروبير» المنبر . وكان قد ازداد هزالا فى
هذه الشهور الاخيرة ، فاذا عظام وجنتيه المحمرتين تبرزان
تحت جلد وجهه الشاحب ، وقد احتقنت جفونه ، وبدا
انسانا عينيه كأنهما زجاجيان . وقال بصوت واهن متهدج
بعض الشىء ، وان بدا ثاقبا بدرجة عجيبة : « أيها المواطنون،
لا سبيل الى الشك فى المحكمة الثورية ، دون الارتياب — فى
الوقت ذاته — فى المؤتمر ولجنة الامن العام اللذين تمخضت
عنهما . لقد أثار المواطن بوفيزاج مخاوفنا اذ أرانا أن
الرئيس مونتانيه قد بدل سير المحاكمة لصالح احدى
المذنبات . والذى لم يضفه الى هنا — من أجل راحة
نفوسنا — هو أن مونتانيه أعتقل وسجن بناء على اتهام وجهه
اليه المدعى العام .. اما من سبيل الى السهر على الامن
العام دون القاء الشبهات فى كل مكان ؟.. ألم يعد فى المؤتمر

مواهب ولا فضائل ؟.. أليس روبسبيير ، وكوثون ، وسان جوست رجالا أمناء ؟.. من العجيب ان تصدر اشد الاقوال عنفا عن افراد لم يشهدوا قط النضال من أجل الجمهورية ! .. وما كانوا ليقولوا غير ذلك اذا شاءوا ان ينفروا القلوب منها . أيها المواطنون ، قليلا من الضجيج ، ومزيدا من العمل للمصلحة العامة !.. ان فرنسا لن تنقذ الا بالمدافع وليس بالصخب . ان نصف أقبية الحى لم تحفر بعد ، ولايزال كثير من المواطنين يحتفظون بكميات كبيرة من البرونز .. اننا نذكر الاغنياء بأن الهبات التي يقدمونها للوطن هى خير كفالات لسلامتهم . اننى أعهد الى كرمكم ببنات ونساء الجنود الذين يحققون المجد عند الحدود ، وعلى ضفاف (اللوار) . لقد كان أحدهم ، وهو بومييه (اوجستان) من فرقة الفرسان - الذى كان مساعدا لأمين المخازن بشارع أورشليم من قبل - أمام كونديه فى العاشر من مايو الماضى ، يقود الجياد ليسقيها ، فاذا به يتعرض لهجوم من ستة من الفرسان النمسويين ، فقتل اثنين منهم ، وساق الباقين أسرى . وانى لأطلب ان تعلن الجمعية العامة للقطاع ان بومييه (اوجستان) قد ادى واجبه ! »

وقوبلت هذه الخطبة بالتصفيق . وتفرق أعضاء الجمعية وهم يهتفون : « لتحى الجمهورية ! » .. واذ صار جاميلان وحيدا مع « تروبير » فى صحن الكنيسة ، صافحه قائلا : « شكرا . كيف حالك ؟ » . فأجاب تروبير وهو يسعل فيبصق دما فى منديله : « اننى فى خير حال . ان للجمهورية أعداء كثيرين فى الخارج وفى الداخل ، وان قطاعنا ليضم - فى حد ذاته - عددا كبيرا منهم . **ان الامبراطوريات لا تصاغ بالصخب ، وانما بالحديد**

وبالقوانين ! .. عم مساء ياجاميــلان ، فان لدى خطابات يجب أن تكتب ! »

ومضى — ومنديله على شفتيه — الى الحجرة التى كانت خزانة المخلفات المقدسة من قبل .

***

اتخذت المواطنة الارملة جاميلان — منذ صباح اليــوم التالى — وقارا بسيطا ، وكبرياء جمهــورية ، وعزة تليق بأم مواطن محلف ، وقد أصبحت شــارتها أصلح وضــعا على شعرها .. كان الاحترام — الذى نشأت عليه — للقضاء ، والاعجاب الذى تملكها منذ طفولتها للقضـــاة ، والذى كان يوحيه اليها الوشاح والعباءة السابغة الجرارة والرهبــة القدسية التى طالما خالتها فى حياة أولئك الرجــال الذين نزل الله لهم على الأرض عما له من حق الحياة والموت .. **كل هذه المشاعر أحالت فى نظرها ذلك الابن الذى كانت — حتى ذلك الحين — تراه لا يزال شبيهاً بالطفل ، الى شــخص جليل ، وقور ، ذى قداســة** . وكانت — فى ســذاجتها — تتطلع الى استمرار العدالة خلال الثورة ، بيقين أقوى من ذاك الذى كان مشرعو المؤتمر يتطلعون به الى استمرار قيام الدولة برغم تغيير نظم الحكم . وكانت المحكمة الثــورية تتمثل لها مساوية فى الجــلال لكافة الهيئات القضائيــة القديمة التى تعلمت أن تحترمها .

- أما المواطن «بروتو» ، فقد أبدى للقاضى الشاب اهتماما ممتزجا بدهشــة واحترام متكلف .. وكالمواطنة الارملة جاميلان ، كان يرى استمرار العدالة برغم تقلب نظم الحكم ، ولكنه — على العكس من هذه السيدة — كان يستهجن أن

تكون المحاكم الثورية مساوية لمحاكم العهد القديم .. واذ لم يكن يجرؤ على المجاهرة برأيه ، ولم يكن يطيق - فى الوقت ذاته - أن يقنع بصمته ، فقد عمد الى توريات فهمها جاميلان فهما صحيحا جعله يرتاب فى وطنية الرجل الذى قال له ذات مرة : « ان المحكمة العظيمة التى عينت فيها اخيرا ، قد انشأها مجلس الشيوخ الفرنسى من أجل سلامة الجمهورية . ويقينا أنها لفكرة فاضلة من مشرعينا أن يتيحوا محاكمات قضائية لأعدائهم . وانى لأرى هذا كرما ، ولكنى لا اراه من السياسة فى شىء . وكان الاجدر بهم - فيما يبدو لى - أن يضربوا فى الظلام من لا سبيل الى اصلاحهم من خصومهم ، وأن يكسبوا الآخرين بالعطايا والوعود.
ان المحكمة المثالية هى التى تضرب ببطء ، وتوقع من الضر أقل مما تحدث من الخوف . والذى ينقص محكمتكم هو أن تصالح أولئك الذين توقع الذعر فى نفوسهم ، وبهذا تجعل من فوضى المصالح والعواطف المتضاربة جماعة واحدة كبيرة قادرة على العمل المشترك ، ذات نفوذ وسلطان ..
انكم تبذرون الخوف ، والخوف أكثر خلقا للأبطال من الشجاعة . فليقدر لك أيها المواطن جاميلان ، أن لا تشهد يوما تنصب عليك فيه سيول الخوف ! »

وكان الحفار « ديماهى » مغرقا - فى ذلك الأسبوع - فى غرام فتاة من فتيات قصر المساواة ، هى السمراء « فلورا » ، الفارعة القوام . ومع ذلك فقد وجد من وقته خمس دقائق ليهنىء زميله ويقول له أن تعيينه فى منصب كهذا تكريم عظيم للفنون الجميلة .

أما « ايلودى » فكانت تكره كل شىء ثورى ، دون أن تفطن . ومع أنها كانت تخشى المهام العامة وتراها بمثابة

مزاحمات خطيرات قديرة على أن تنازعها قلب حبيبهـا ، الا أن « ايلودى » الرقيقة راق لها أن تتقبل أن تكون حبيبة قاض يدعى الى الفصل فى أمور عظيمة . ومن ثم فان تعيين ايفاريست للاضطـلاع بمهام المحلف خلق حولهـا جوا سعيدا ، استمتعت به مشاعرها المرهفـة . وأقبل المواطن « جان بليز » الى المرسـم — فى ميـدان تيونفيل — فعانق المحلف بفيض من الحنان الناعم . فقد كان — ككل معارض للثورة — يبدى اعتبارا لسلطات الجمهورية، وكانت المحكمة الثورية تبث فيه احتراما مبنيـا على الخوف ، منـذ اتهم بالغش فيما كان يورده للجيش من مؤن .. كان يرى نفسه شخصية ذات مظهـر وذات اختـلاط بكثير من الأمور التى لاتتيح له أن يتذوق السـلامة كاملة . ومن ثم فقـد لاح له المواطن جاميلان رجلا جديرا بأن يستغل ، لاسيما وانه كان مواطنا صالحا ، صديقا للقانون ! .. فبسط يده للرسام المحلف ، مبديا الود والوطنية والتحمس للفنون وللحرية . فصافح جاميـلان — بما أوتى من كرم النفس — اليـد المبسوطة له .

وقال جان بليز : « ايهـا المواطن ايفاريست جاميلان ، اننى أعتز بصداقتك ومواهبك ، وسأقلك غدا الى الريف لثمان وأربعين ساعة ، فترسم ؛ ونتحدث معا ! » . وكان تاجر الصور ينظم — عدة مرات فى السنة — نزهات فى الريف للرسامين ، تستغرق يومين أو ثلاثة ، فيرسمون المنـاظر الطبيعية والاطلال تحت ارشاداته . واذ كان يدرك — بذكائه — ما قد يروق لجمهوره ، فقـد كان يخرج من هـذه الجولات بلوحات تستكمل فى معمله وتنحت بمهارة ، وتطبع بالألوان فتدر ربحا طيبا . كان يصنع من تلك الرسـوم

لوحات للابواب ونقوشا كانت تلقى من الرواج ما يفوق زخارف « أوبير روبير » .

ولقد رغب فى أن يصطحب المواطن جاميلان — فى هذه المرة — ليرسم له صورا منقولة عن الطبيعة . وهكذا رفع منصب المحلف من مقام الرسام لديه . وكان فى الفريق رسامان آخران ، هما الحفار « ديماهى » — الذى كان يحذق الرسم — والفنان المغمور « فيليب ديبوا » الذى كان يجيد الرسم بأسلوب «روبير» . وقد رافقت المواطنة «ايلودى» ، ومعها زميلتها المواطنة « هازار » ، الرسامين كالعادة . كما أن جان بليز — الذى كان يعرف كيف يجمع بين شواغل مصالحه وحرصه على ملذاته — دعا الى تلك النزهة المواطنة « تيفينان » ، ممثلة « الفودفيل » التى كانت من المعروف انها أعز صديقاته !

الفصل العاشر



في الساعة السابعة من صباح يوم السبت ، أقبل المواطن «بليز» وقد ارتدى قلنسوة سوداء مثلثة ، وصديرى وردى ، وسروالا (بنطلون) من الجلد ، وحذاءين أصفرين ذوى قلابتين . فراح يدق بمقبض سوطه باب المرسم . وكانت المواطنة الارملة جاميلان منهمكة فى حديث برىء مع المواطن « بروتو » ، بينما كان « ايفاريست » يعقد ربطة عنقه البيضاء العريضة امام قطعة صغيرة من مرآة .. وقالت المواطنة : « رحلة طيبة ياسيد بليز !.. ولكن ، مادمتم تعتزمون ان ترسموا مناظر طبيعية ، فاصطحبوا السيد بروتو ، اذ انه يجيد الرسم » . فقال جان بليز : « لا بأس !.. تعال معنا يا مواطن بروتو ! » . وما أن اطمأن

بروتو الى انه لن يكون متطفلا ؛ حتى قبل الدعوة .. فقد كان ذا روح اجتماعية ، وكان محبا للمسرات .

وكانت المواطنة « ايلودى » قد صعدت الى الطابق الرابع لتقبل المواطنـة الارملة جاميلان ، التى كانت تدعـوها « حماتها » !.. وكانت فى ثياب بيضاء – من رأسـها الى قدمها – ويفوح منها عبير الخزامى (اللافنده) .

وكانت فى انتظارهم مركبـة مغلقة (برلين) عتيقة – من المركبات التى تستخدم فى الرحلات – يجـرها جوادان ، وقد ازيح سقفها . واحتلت المقعد الاوسـط فيها « روز تيفينان » و « جوليين هازار » . واتخـذت « ايلودى » مجلسها الى اليسار ، جاعلة الممثلة الى يمينها ، و « جوليين » النحيلة بينهما . وجلس «بروتو» فى المقعد الخلفى ، مواجها المواطنة « تيفينان » ، و « فيليب ديبوا » مواجها المواطنـة « هازار » ، و « ايفاريست » مواجهـا « ايلودى » . اما « فيليب ديماهى » ، فقد حط جسده الرياضى على المقعـد الامامى ، الى يسار الحوذى الذى راح يروى له ان الاشجار – فى احدى بلدان أمريكا – تثمر « سجق » بدلا من الفاكهة !

ولما كان المواطن بليز فارسا بارعا ، فقد انطلق على صهوة جواد ، مستبقا القوم حتى يأمن العثير الذى تثيره المركبة .

وما ان طوت العجلات طرق الضواحى المرصوفة ، حتى نسى المرتحلون همومهم ، وانقلبت أفكارهم ضاحكة ناعمة ، عند مرأى الحقول والاشـجار والسماء . **وخيل لايلودى انها انما خلقت لتربى الدجاج الى جوار «ايفاريست» الجدير بأن يكون قاضيا يقر الامن فى قرية على ضفة نهر بالقرب من غابة .**

واخذت اشجار الصفصاف الصـغيرة تتراجع تباعا .

وعند مداخل القرى ، كانت الكلاب الصغيرة تهرع فى تحـــد نحو العربة ، وتنبح عند سيقان الجيـاد ، بينما كانت كلاب الصيد الكبيرة تنهض فى تكاسل من مرقدها فى عرض الطريق وتتباعد .. اما الدجاجات فراحت تتفرق وتجرى فى عرض الطريق ، وهى مضطربة تنشد الفـرار .. بينما كان الاوز يتباعد زرافات فى بطء وتثاقل .. والاطفال القـــــذرون المشعثون يتطلعون الى الركب وهو يمر .

وجاء الضحى حارا ، فاذا السماء صـــــحوة : والارض تتحرف شوقا الى المطر . ووطأت اقـدام القوم الارض على مقربة من (فيلجويف) .وفيما كانوا يجوسون خلال القرية ، دخل « ديماهى » متجرا للفاكهة ، ليشترى كرزا يرفه به عن المواطنات . واذا البائعة جميلة . فلم يغادر المتجر . وناداه « فيليب ديبوا » بالاسم الذى اطلقه عليه اصـــدقاؤه فيما بينهم : « باربارو ! .. باربارو ! » .. وعنـد سماع هـذا الاسم البغيض ، ارهف المارة اسماعهم ، واطلت وجـوه من كافة النوافذ ، حتى اذا رأوا « ديماهى » يخرج من متجـر الفواكه ، تقدم منه شاب مليح ، فى معطف مفتوح يكشف عن رقبة ممتلئة فوق صدر قوى كصدور الرياضيين . وقد حمل على احد منكبيه سلة مليئة بالكرز ، وعلق فى طرف عصا ـ على المنكب الآخر ـ لفافة بها ثيابه . وظن الرجل أن« ديماهى» هو الجيروندى صاحب الاسم ـ « باربارو » ـ بينما أحاط به « السانكيلوت » متجهمين فى غير ترفق ، وســاقوه الى دار البلدية برغم احتجاجاته واستنكاراته ، حتى ان الشيخ « بروتو » ، وجاميلان ، والشابات الثـلاث لم يجرأوا على أن يشهدوا بأن المواطن كان « فيليب ديماهى » الحفار الدقيق، وانه كان يعقوبيا صادقا .. ثم قدر للمشـــتبه فى امره ان

يبرز بطاقته المدنية التى كان يحملها بمصادفة غريبة ، اذ انه كان شديد الاهمال لمثل هذه الاشياء . وكان هذا هو الثمن الذى افتدى به نفسه ، فأفلت من أيدى القرويين المتحمسين دون ما خسائر اللهم الا ان أحد كمى قميصه — المصنوعين من الدانتيلا — تهدل وفقد استواءه .. ولكنها كانت خسارة طفيفة ، على كل حال !.. وسرعان ما تلقى اعتذارات من رجال الحرس الوطنى ، الذين صافحوه بكل حرارة ، وراحوا يتحدثون عن استعدادهم لأن يحملوه الى دار البلدية فى اكرام واكبار !

واذ وجد نفسه طليقا محوطا بالمواطنات ايلودى ، وروز ، وجولييين ، رمى « فيليب ديبوا » — الذى لم يكن يحبه ، وكان يشتبه فى انه خائن — بابتسامة ملؤها الاستهجان ، وقال له : « لو أنك ناديتنى بباربارو مرة أخرى ياديبوا ، فسأناديك ببريسو .. وهو شاب ضئيل ، قمىء ، سخيف ، ذو شعر مضمخ بالدهون ، وبشرة تنضح بالزيت ، ويدين لزجتى الملمس .. **ولن يرتاب أحد فى أنك بريسو السىء السمعة ، عدو الشعب .. ولن يحجم الجمهوريون — اذ يستنكرون منظرك ويشمئزون منك — عن ان يشنقوك على أقرب مصباح .. أتسمع ؟ »**

وأخذ المواطن « بليز » — الذى تحول يسقى جواده — يؤكد انه هو الذى سوى الموضوع ، بالرغم من انه كان جليا للجميع ان الامر سوى بدونه .

***

وعادوا الى المركبة .. وفى الطريق ، زعم « ديماهى » للحوذى ان عددا كبيرا من سكان القمر ، سقطوا فى ذلك السهل الذى كانوا يجتازونه — سهل (لونجومو) — فى قديم

الزمن ، وكانوا من حيث الشكل واللون يشبهون الضفادع ، ولكنهم كانوا ــ من حيث القوام ــ أرقى منهـــا كثيرا . . أما فيليب ديبوا وجاميلان ، فراحا يتحدثان عن فنهما . وكان « ديبوا » من تلاميذ « رينيـــو » ، وقد ذهب الى (روما) ، وشهد لوحات « رافاييل » الموشاة ، التى اعتبرها فـــوق كافة التحف الفنية . وكان يعجب بطـــريقة « كوريج » فى التلوين ، وبمقدرة « هانيبال كراشى » على الابتكار ، وأسلوب « الدومينيكان » فى الرسم ، ولكنه لم يكن يجـد ما يعادل لوحات « بومبيو باتونى » فى الاسلوب . ولقد تردد فى روما على مسيو ميناجو ، ومدام ليبرون ، اللذين كانا قد أعلنا عداءهما للثورة ، ومن ثم فانه لم يتحدث عنهما ، بل تحول بطرى « انجليكا كوفمان » التى عرفت بتـــذوقها للتحف الاثرية وخبرتها بها .

أما جاميلان فــكان فى أسى لأن نهضة فن الرسم الفرنسى كانت بطيئة ، اذ انها لم تسجل سوى « لوســـوور » ، و « كلود » و « بوسان » . واشار الى علاقتها بالمدرســتين الايطالية والفلمنكية فى انحطاطهما وما اعقبه من انهيار سريع وبعيد الغور . وقد عزا أسباب ذلك الى طبـــاع الشعب ، والى « الاكاديمية » ، التى كانت مرآة لذلك الانهيار . ولكن « الاكاديمية » لم تلبث ــ لحسن الحظ ــ ان أخذت ترقى وتنهض ، تحت تأثير اقطابها الجدد ــ دافيد ومدرســته ــ الذين خلقوا فنا جديرا بشعب حر . وفى مقدمة الرسامين المجدين ، ذكر جاميلان ــ فى غير غيرة او حسد ــ هنيكان ، وتوبيتو ــ ليبرون . بيد ان فيليب ديبوا كان يفضــــل « رينيو » ــ أستاذه ــ على دافيـــد ، وكان يبنى أمل فن الرسم على الفنان الشاب « جيرار » .

أما ايلودى فقد راحت تهنىء المواطنـــة ((تيفينـــان)) على قلنسوتها المخملية الحمراء ، وثوبها الابيض . فى حين كانت الممثلة الهزلية تطرى زينة زميلتيها ، وترشدهما الى الوسيلة التى تحسنان بها هذه الزينة فوق حسنـــهما ، وذلك ـ فى رأيها ـ بالاقلال من الحلى . ومضت تقول : « ليس هنــاك ما هو أفضل من البساطة . هكذا تعلمنا من المسرح ، حيث يجب الاعتماد على الثياب فى اظهار كافة الحركات .. فى هذا وحده الجمال ، وليس فى أى شىء سواه ! » . فقالت ايلودى : « اصبت يا حسنائى ، فما من شىء اعظم قيمة فى الزينة من البساطة . وليس من قلة الذوق دائما اننا نرتدى الثيــاب القصيرة ، وانما نصدر فى ذلك أحيانا عن رغبة فى الاقتصاد » .

ورحن يتكلمن فى اهتمام عن ازياء الخريف ، التى تمثلت فى ان يكون الثوب قطعة واحدة ، وان يكون قصيرا . فقالت تيفينان : « كم من نساء يشوهن أشكالهن باتباع «الموضة»!.. انما ينبغى على كل امرأة ان تــرتدى ما يلائمها ! » . فقال جاميلان : « ما من جمال قدر جمال الاقمشـــة التى تلتف حول الجسم ، والتى توشى بالزوائد الفضفاضة . اما كل ما هو مقصوص ومخيط (٥١) فبغيض ! »

وقوبلت هذه الاقوال ـ التى قد يحسن أن يتضمنها كتاب لوينكلمان (٥٢) لا أن تنطق بها شـــفتا رجل يتحـــدث الى باريسيات ـ بتجاهل ينطوى على اســــتهجان . وقالت ايلودى : « انهم يعدون للشتاء اردية ضـــيقة من القماش الناعم ؛ فى فلورنسا وصقلية ، واردية ردينجوت على طـراز

---

(٥١) يقصد أن تلتف المرأة بالقماش على طريقة الاغريقيات وعلى غـــرار « السارى » .

(٥٢) جوهان جواشيم وينكلمان : عالم الآثار المانى (١٧١٧ ـ ١٧٦٨) .

« زونيم » ، ملفوفة حول الخصر ، وتضم من أعلى بصديرية على الطراز التركى ». فقالت تيفينان : « هذه وسيلة لستر الفقر ، وهى تباع جاهزة . اما أنا فلدى حائكة تعمل كأنها ملاك وليست باهظة الاجر ، ولسوف ارسلها اليك يا عزيزتى ! » .. وتنقل الحديث بسرعة وخفة وتتابع ، ينشر ويبسط الاقمشة الراقية ، ما بين حرير فلورنسا المموه ، والحرير البكينى الفريد ، وحرير صقلية ، و « الكريشة » ، وحرير نانكين .

وراح الشيخ ((بروتو)) يتمثل ـ وهو ينصت فى أسى ملتاع ـ تلك الاقمشة التى كانت زينة الموسم ، وقد التفت حول اجسام فاتنة .. ((مودات)) لم تكن تدوم طويلا ، ولكنها لا تلبث ان تبعث من جديد ، على مر الزمن ، كالزهور فى الحقول . واغرورقت عيناه ـ وهو يجيلهما بين الشابات الثلاث وزهور الترنجان وشقائق النعمان ـ بدموع يشوبها ابتسام .

وبلغوا (اورانجى) حوالى الساعة التاسعة ، فهبطوا فندق « ديلاكلوش » ، حيث اعتاد الزوجان « بواترين » أن يستقبلا القادمين على الاقدام ، أو على الجياد . وبسط المواطن « بليز » ـ الذى كان قد جدد زينته ـ يده الى المواطنين . وبعد أن دبر القوم غداءهم لوقت الظهيرة ، ساروا على الاقدام عبر الحقول الى ملتقى نهرى (لوجر) و (ليفيت) ، تتقدمهم صناديقهم ، وعلبهم ، وحوامل لوحاتهم ، ومظلاتهم .. وسعوا الى تلك الاماكن الساحرة ، حيث يتكشف سهل (لونجومو) الاخضر للابصار ، يحف به نهر (السين) وغابة (سانت جنيفييف) .

وراح جان بليز ـ الذى كان يقود فريق الفنانين ـ يتبادل

مع رجل المال السابق ــ بروتو ــ موضوعات خفيفة مازحة، ورد فيها ــ دون ترتيب ولا تنسيق ــ ذكر فربوكيه لوجنيرو ، وكاترين كيسو التى كانت تتجر فى اللوحات ، والآنسات شودرون ، والساحر جاليشيه ، واللوحات الفنية التى رسمها فنانون أحدث عهدا من هؤلاء .. مثل كاديه ــ روسيل ، ومدام انجو .

وأحس ايفاريست ــ وقد استولى عليه حب مفاجىء للطبيعة ــ بأن عينيه تمتلئان بالدموع ، اذ رأى الحصاد محزوما .. وزخر قلبه بأحلام الوئام والمحبة .. أما «دياهى» فراح ينفخ فى شعور المواطنات حبات الهندباء الخفيفة . واذ كانت ثلاثتهن يملن بذوق المتحضرات الى باقات الزهور ؛ فقد أخذن يجمعن أعواد نبات « سكر الحوت » ــ الذى تضم زهوره سنابل ملتفة حول تاجها ــ واعواد نبات « قبعة الجرس » الذى يحمل طبقات مدلاة من الزنابق الشبيهة بالنواقيس الصغيرة الرقيقة ، وأغصانا من نبات « هديل الحمام » العبق ، فى لون البرد الناصع .. وأعواد الخمان والنعناع ؛ و « النبات ذى الالف ورقة » ، وكافة الزهور الخلوية التى خلفها الصيف المحتضر . **ولما كان « جان ــ جاك » (٥٣) قد وضع علم النبات بين الطرائف التى تتعشقها فتيات المدن ، فقد كانت ثلاثتهن على دراية بالزهور واسمائها وغرامها !..** واذ راحت بتلات الزهور الرقيقة ــ وقد ايبسها الجفاف ــ تتهاوى بين ذراعى ايلودى ثم تتساقط كالمطر على قدميها ، ندت عن المواطنة زفرة ، وهى تقول : « هاهى ذى الزهور تحتضر ! »

***

(٥٣) جان ــ جاك روسو ، الذى عرف بشدة شغفه بالطبيعة والنبات .

وأقبل كل على العمل ، سعيا وراء التعبير عن الطبيعة التى كانت تطالعهم . بيد ان كلا منهم كان يراها بطريقة خاصة به . فاستغرق « فيليب ديبوا » — بعض الوقت — فى اتباع طريقة « أوبير روبير » ، وهو يرسم مزرعة مهجورة ، وأشجارا ذابلة ، وجدولا جف ماؤه .. وراح « ايفاريست جاميلان » يرسم مناظر الفراريج (الكتاكيت) المنتشرة على ضفة نهر (ليفيت) .. اما « فيليب ديماهى » فقد اتخذ مربضه أمام برج للحمام ؛ وراح يرسم على طريقة « كالو » و « دوبليسى » الملتوية .. واخذ الشيخ « بروتو » — الذى حذق تقليد اسلوب الفلاندر — يرسم بقرة بعناية .. وانهمكت « ايلودى » فى رسم كوخ من القش ، بينما جعلت صديقتها « جوليين » — التى كانت ابنة تاجر للالوان — من نفسها حاملة ألوان لها . والتف حولها الاطفال ، وراحوا يرمقونها وهى تمزج الالوان .. فأنستهم يومهم ، وهى تسميهم « البعوض » ، وتمنحهم قطع الحلوى .

اما المواطنة « تيفينان » ، فقد راحت — كلما وجدت بينهم اطفالا على قدر من الجمال — تغسل لهم وجوههم ، وتقبلهم ، وتبث الزهور فى شعورهم ، وهى تحتضنهم فى شجن حنون لأنها لم تؤت نعمة انجاب الاطفال .. **ولأنها — فى الوقت ذاته — شاءت ان تظهر بمظهر التى تغدق الحنان ، وان تمارس فنها فى اصطناع المناظر لنفسها وسط جمع الاطفال !..**

وما لبثت ان ألفت نفسها وحيدة : فلم تعمد الى الرسم ، ولا هى نسقت شعرها ، بل شغلت باستذكار أحد ادوارها ، وبالبكاء .. ثم تحولت تتنقل من واحد الى آخر — وكراستها فى يدها — كأنها طيف خفيف فاتن . وبعد ان كانت الاناث

يقلن عنها : « لا لون ، ولا شكل ، ولا قوام ، ولا صوت ! » ، اذا بها تملأ الفضاء حركة ، ولونا ، وانسجاما . واذا بهـــا بنحولها ، وجمالها . وتراخيها ، وعـــدم اعترافها بالتعب . تغدو بهجة الرحلة .. كانت ذات مزاج غير متزن ولكنه ــ فى الوقت ذاته ــ مرح دائما .. وكانت سريعة الحســاسية والانفعال ، ولكنها ــ مع ذلك ــ لينة ، سهلة ، سلسة القياد .. وكانت لغتها قذرة ولكنها مغلفة دائما فى لهجة مؤدبة .. **كانت متعجرفة ، ومتواضعة .. صادقة ، وزائفة ، وعـذبة .. واذا لم يكن قد قدر لروز تيفينان ان توفق فى سوس امورها ، وان تغدو ربة معبـــودة ، فما ذلك الا لأن باريس كانت فى أسوأ أوقاتها ، فلا بخور ، ولا معابد ، ولا صلوات !..**

وكانت المواطنة« بليز » ــ التى اعتادت أن تتغامز اذا تحدثت عنها ، وان تدعوها « امرأة أبيها » ــ لا تتمالك حين تراها ان تضفى عليها المجاملات والتلطف .

وكانت مسرحيـــة « طقوس عيـــد الزيارة » قد قرئت على « فيدو »(*) وحظيت « روز » بدور غير متكلف .. فقد كانت تسعى وتتبع كل ما هـــــو طبيعى . غير ان « مسرح الأمة » كان قد اغلق ، واحيـــل ممثلوه الى مسرحى « ماديلونيت » و « بيلاجى » ، فصاحت « تيفينان » ، وهى ترفــــع الى السماء عينيها الجميلتين المفعمتين بالاستنكار : « أهـــذه هى الحرية ؟ » ، فقال جاميلان : « ان ممثلى « مسرح الامـــة » أرستقراطيون ، ومسرحية المواطن فرانسوا مليئة بالاسف بامتيازات طبقة الاشراف » .

فقالت تيفينان : « ايها السادة .. الا تعـــــرفون كيف تستمعون لغير اولئك الذين يتملقونكم ؟ »

***

ولاذ « ايفاريست » بقرب « ايلودى » ، يذكرها — وهو يبتسم — بذكريات لقاءاتهما الاولى : « كان هناك عصفوران صغيران ، سقطا من السقف الذى كانا يعششان فيه ، وحطا على حافة نافذتك . فعنيت أنت بتغذيتهما ودس الطعام فى منقاريهما .. وعاش أحدهما ، وطار . أما الآخر فمات فى العش الذى صنعته له من القطن المندوف .. وقلت يا ايلودى عنه : « **هــذا هو الذى كنت اوثره بالقسط الاوفر من حبى** » !.. وفى ذلك اليوم ، زينت شعرك بعش أحمر ! »

أما فيليب ديبوا ، وبروتو — اللذان كانا بعيدين بعض الشيء ، فى مؤخرة القوم — فقد راحا يتحدثان عن روما ، التى ذهب اليها كل منهما .. احدهما فى سنة ٧٢ ، والآخر حوالى الايام الاخيرة للاكاديمية . واسترجع « ديبوا » الشيخ « بروتو » ذكرى الاميرة « موندراجون » وهو يسمعها نجــواه ، دون ان يفطن الكونت « آلتييرى » ، الذى كان يلازمها ملازمة الظل .. ولم يغفل ان يذكر انه دعى للعشاء لدى الكردينال « بيرنى » ، وان هــذا كان اكرم مضيف فى فى العالم .

فقال بروتو : « لقد عرفته ، وبوسعى أن اقول — دون مبالغة — انني كنت من اقرب معارفه اليه ، فى فتــرة من الزمن .. وكان يحب التردد على اوساط الرعاع .. كان رجلا لطيفا ، يشغف بالحديث عن القصص الخرافية . **وكان فى اصبعه من الفلسفة الحكيمة اكثر مما فى رؤوس زعمائكم اليعاقبة ، الذين يريدون ان يبثوا فينا الفضيلة وعبــادة القانون** . ويقينا اننى أحب رجالنا الدينيين الذين لا يعرفون ما يقولون ولا ما يفعلون ، اكثر مما أحب اولئك المتهوسين الذين يقلبون القوانين رأسا على عقب ، والذين يعمــدون الى

قطع رؤوسنا على « الجيلوتين » ، ليجعلوا منا قوما فاضلين وحكماء ، وليحملونا على ان نعبـــد « الذات العليا » التى صاغتهم على صورتها !.. فى الايام الغابرة ، كنت ألقن الصلاة فى كنيسة بالجزر ، بوساطة قس اشبه بالشيطان الشرير ، اعتاد ان يقـــول بعد الشراب : « **احمنا من ان نسىء الظن بالصيادين ، فنحن قساوسة نعيش بينهم بكرامتنا !** » .. لنقر يا سيدى بأن هذا الدعاء السباذج ، له معانى ســليمة بالنسبة للحكومة . وخليق بهذا القس ان يرد الى هنا ويحكم الناس على ما هم عليه ، وليس على ما ينبغى ان يكونوا » .

واقتربت « تيفينان » من « بروتو » الـــكهل .. كانت تعرف انه كانت لهذا الرجل يوما حاشية كبيرة ، وان خياله كان يستغل هذه الذكرى اللامعة لاضفاء رواء على ما اصبح فيه هذا المالى السابق من فقـــر فى حاضره ، فيخفف من تقديره لهوانه ، ويراه أمرا عاما ناجما عن الافلاس العـام . وراحت تتأمله فى فضول لا يخلو من الاحترام ، كحطام لواحد من الاغنياء المفرطى الثراء ، الذين كانوا يلاحقون بتنهداتهم الممثلات اللائى سبقنها . وما لبثت أحوال هذا الرجل الطيب ذى « الردينجوت » الحائل ان اعجبتها ، فقالت له :

ــ من المعروف عنك يا مسيو بروتو ، أنك كنت ــ فيـما مضى ــ تتألق فى متنزه جميل ، فى الليالى المشرقة بالاضواء ، وبين الرياحين ، مع الممثلات والراقصات ، بينما ينبعث عزف المزامير والكمان من بعد . واأسفاه !.. **ألم تكن معبوداتك من ربات « الاوبرا » و « الكوميدى فرانسيز » أجمل منـا نحن الممثلات الصغيرات البائسات فى المسرح القومى !**

فأجاب بروتو : « لاتصدقى هذا يا آنسة ، واعلمى أنه لو تسنى ــ فى ذلك الوقت ــ لقاء واحدة مثلك ، لقدر لها أن

تخطر فى جلال وسلطان ، وحيدة ، وبلا فريسة ، فى ذلك المتنزه الذى تبالغين فى تصوره ! »

***

كان فندق « لاكلوش » ــ أى الناقوس ــ عتيقا ، يتدلى فرع من شجر « الآس » البرى على الباب المخصص لمرور المركبات به . وكان هذا الباب يفضى الى فناء دائم الرطوبة ، تسعى فيه الدواجن ، ويقوم المبنى فى نهايته ، مؤلفا من طابق أرضى ، يعلوه طابق واحد آخر ، يتوجه سقف محدودب عال من القرميد ، بينما تتوارى جدرانه تحت فروع أشجار قديمة أثقلتها الورود .. والى اليمين ، كانت ثمة أشجار سامقة ، تشرئب رؤوسها فوق الطرف الذى يقوم فيه سياج الحديقة .. أما الى اليسار ، فكانت ثمة حظيرة للخيل ، يقوم خارجها معلف ومخزن للغلال من أعمدة خشبية متعارضة . والى الجدار ، أسند سلم متنقل . كما احتشدت تحت سقيفة ــ فى هذا الجانب ــ أدوات زراعية وجذوع أشجار مجتثة .. وفوق مركبة عتيقة ، وقف ديك أبيض يراقب دجاجاته . وهنا كان الفناء مغلقا بحظائر للماشية ، التى قام أمامها كوم من السماد العضوى كأنه التل المهيب ، برزت من خلفه ــ فى تلك الساعة ــ فتاة تحمل مذراة ، وقد أوتيت بسطة فى العرض أكثر مما أوتيت فى الطول ، وشعرا بلون التبن . وكان روث الماشية السائل يملأ خفيها المصنوعين من الخشب . ويغرق قدميها العاريتين ، اللتين كان كعباهما يبرزان ــ من حين الى آخر ــ فى اصفرار « الكركم » . وكانت جونلتها الململمة الاطراف ، تكشف عن قذارة بطنى ساقيها القصيرتين المكتنزتين .. **وما أن رأى ((فيليب ديماهى))**

هذه الفتاة ، حتى دهش وراح يعجب من عبث الطبيعة التي أنشأتها بهذه الضخامة ، بينما صاح بها صاحب الفندق :
« ها يا لاترونش .. اذهبى فاجلبى ماء ! »

واستدارت ، فأبدت وجها ارجوانى اللون ، ذا فم واسع يتسع لحاملة الالوان « الباليته » . وما كان لقـرن ثور أن يثلم صف الاسـنان القوية التى تبدت فى ذلك الفم ، وهى تضحك ، ومذراتها على كتفهـا ، وذراعاها اللتان لوحتهما الشمس بسمرة قاتمة ، تلوحان فى ضخامة الفخذين .

وكانت المائدة قد مدت فى قاعة الطابق الاسفل ، وعليهـا الطيور التى صادتها البنادق العتيقة ، وقد شويت أتم شواء تحت ناقوس المدخنة . وكانت القاعة تتجاوز العشرين قدما طولا ، وقد طليت جدرانها بالجير الابيض . ولم يكن يضيؤها سوى زجاج الباب المخضوضر اللون ، وسوى نافذة وحيدة ، تحف بها الورود ، والى جوارها كانت الجدة العجوز تدير عجلتها (٥٤) . وكانت ترتدى فوق رأسها قلنسـوة ذات حواف عريضة من « الدانتيل » التى يرجع طرازها الى عهد الوصاية (٥٥) .. وبدت أصابع يدها عجفاء ، مغبرة ، وهى تمسـك بالمغزل .. وقـد راح الذباب يقف على حـواف أجفانها فلا تهشه .. كانت قد رأت لويس الرابع عشر يمر فى مركبته ، وهى بعد طفلة على ذراعى أمها ! .. وقد انقضت ستون سنة منذ ذهبت الى باريس ، فراحت تروى ــ فى صـوت واهن ولكنه أغن رخيم ــ للشابات الثلاث اللائى وقفن أمامها ، أنها رأت دار البلدية ، والتويلرى ، والكنيسة

---

(٥٤) طراز قديم من المغازل ، له عجلة يدار بها .

(٥٥) عهد « فيليب دورليان » ، قبيل بلوغ لويس الخامس عشر الرشـد (١٧١٥ ــ ١٧٢٣) .

السامرية .. وانها ـ بينما كانت تجتاز الجسر الملكى (بون رويال) ـ رأت سفينة كانت محملة بالتفاح المرسل الى سوق (ميل) ، واذا بها تتفكك فينساب التفاح منها الى الماء، وينتثر فى النهر ، كأنه بقع حمراء .

وأحيطت علما بالتغيرات التى طرأت حديثا على المملكة . لاسيما الشقاق بين القساوسة الذين اقسموا اليمين . واولئك الذين لم يقسموا . كما علمت بأن حروبا قد نشبت ، ومجاعات تفشت ، وعلامات ظهرت فى السماء (٥٦) . . وأبت أن تصدق أن الملك قد مات ، بل قالت أن هناك من هربه خفية . وساق أمام الجلاد رجلا من عامة الشعب بدلا منه .

وعند قدمى الجدة ، كان آخر وليد من آل « بواترين » ـ وهو « جانو » ـ يرقد فى مهد خفيف ، معتلا اذ بدأت أسنانه تنبت . ورفعت « تيفينان » المهد المصنوع من الخيزران ، وأبتسمت للطفل ، الذى كان يئن بصوت واهن اثقلته الحمى والمغص . ولابد أن المرض كان قد برح به ؛ اذ كان الطبيب المواطن « بيلبور » قد استدعى ، ولكنه كان ـ فى الواقع ـ نائبا فى مجلس الوفاق ، فلم يكن يحفل بعيادة أحد .

وشعرت المواطنة ((تيفينان)) ـ وهى تذكر ماكان أبوها يمارسه يوما ـ بأنها فى الجو الذى الفته ، فلم ترضها الطريقة التى غسلت بها ((الاترونش)) الاوعية ، وأقبلت تغسل الصحاف والاكواب والاعق . وبينما كانت المواطنة « بواترين » تطهو الحساء ـ الذى كانت تتقنه كخير طاهية فى فندق ـ أخذت « ايلودى » تقطع رغيفا من الخبز ـ وزنه ربع رطل ـ الى شرائح ، وهو بعد ساخن . واذ رآها جاميلان تفعل ذلك ،

(٥٦) انتشرت الشائعات الخرافية ـ فى أوائل الثورة ـ بين الجهلة ، عن ظهور العلامات السماوية التى يقال انها تنذر بنهاية العالم .

قال لها : « قرأت منذ بضعة أيام ، فى كتاب من تأليف شاب ألمانى نسيت اسمه ، وقد ترجم فى لغة فرنسية جيدة جدا . . وفى هذا الكتاب فتاة حسناء تدعى « شارلوت » تقطع الخبز ـ مثلك ـ يا ايلودى . . كانت مثلك تقطعه فى رشاقة وجمال ، جعلا الشاب « فيرتر » يهواها اذ رآها » .

فسألته ايلودى : « وهل انتهى الامر بالزواج ؟ »

فأجاب ايفاريست : « كلا ، بل أنتهت تلك القصة بوفاة قاسية لفيرتر » .

وأقبلوا على الغداء بنهم ، اذ كان الجوع قد برح بهم . ولكن الاكل كان متوسطا ، مما دعا « جان بليز » الى التذمر ، فقد أعتاد أن يعنى بفمه ، وأن يجعل من العناية بالطعام الجيد قاعدة للحياة . . وليس من شك فى أن القحط العام هـــو الذى حفزه على أن يصوغ نهمه فى نظام يحرص على أتباعه . فان الثورة كانت قد قلبت القدر (٥٧) فى كل بيت . فلم يعد للعامة من المواطنين ما تمضغه أسنانهم . **أما المقتدرون ـ ممن على شاكلة جان بليز ـ الذين كانت أرباحهم تتضخم على حساب الشقاء العام ، فكانوا يسعون الى المطاعم ، حيث كانوا يعرضون افتتانهم فى ملء بطونهم !**

أما « بروتو » الذى راح فى العام الثانى للحرية يعيش على الكستناء وفتات الخبز ، فقد ذكره الطعام بأنه كان يتناول عشـــاءه فى مطعم « جريمو ديلادينيير » ، عنـد مدخل (الشانزليزيه) . واذ عجز عن ذكر اسم الطبق الشهى ، أمام كرتب المرأة « بواترين » المقلى بالدهن ، تحول عن تذكـــر وصفات الطهو ، والأصناف الدسمة من الغذاء ، وأعلن ـ على غرار جاميلان ـ ان الجمهورى يزدرى لذاذات المائدة . ثم

(٥٧) كناية عن الحرمان من الاكتفاء الغذائى .

طفق الحكيم المكتهل ، المولع بالتحف القديمة، يصف للاسبرطى الشاب الطريقة الصحيحة لصنع حساء من الدقيق الاسمر .

***

وبعد الفداء ، كلف « جان بليز » — الذى لم يكن ينسى الامور الجدية — « اكاديميته » المتنقلة، بعمل رسوم تخطيطية ومشروعات لوحات للفندق الريفى الذى اعتبره — فيما كان عليه من تهدم — شاعريا . واذ أقبل « فيليب ديماهى » و « فيليب ديبوا » على رسم الحظائر ، ذهبت « ترونش » تقدم الطعام الى الخنازير . واقترب المواطن « بيلبور » ، طبيب الصحة ، الذى انفلت — فى تلك الاثناء — من قاعة الطابق الاسفل ، حيث كان قد قام ببعض الخدمات الصحية لبواترين الوليد .. وبعد أن اطرى مواهبهم التى تشرف الامة بأسرها ، أشار الى « ترونش » وقد أحاطت بها الخنازير ، وقال :

— **أترون هذا المخلوق ؟ .. أنها ليست فتاة — كما قد تحسبونها — وانما هى فتاتان . وتأكدوا اننى جاد فى معنى ما أقوله !.** فقد أدهشتنى ضخامة حجم عظام ظهرها ، ففحصتها ، وتبينت أن معظم عظام الظهر عندها مزدوجة ؛ وفى كل فخذ ، توجد كرمتان ملتحمتان .. وعند كل كتف عظمتان للساعد . كذلك أوتيت عضلات مزدوجة . **فهى — فى رأيى — مخلوقان ملتحمان التحاما دقيقا ، أو — بتعبير آخر — اندمجا معا .** وهذه حال طريفة ، وقد ذكرتها للسيد « سانت هيلير » ، الذى أقرنى فيما علمت . أن الذى ترونه أمامكم مسخا ايها المواطنون .. والقوم هنا يسمونها « لاترونش » ، وجدير بهم أن يقولوا « ليه ترونش » ، فهى

اثنان (٥٨) ؛ أن للطبيعة نزوات غريبة .. عموا مساء أيها المواطنون الرسامون ، فستهب عاصفة الليلة !

وبعد أن تناول أعضاء « آكاديمية » بليز العشاء عى ضوء الشموع ، التفوا فى فناء الفندق ـ بصحبة ولد وفتاة من آل بواترين ـ ليمارسوا لعبة « كولان ـ مايار » **(٥٩)** ، التى يبذل فيها الشبان والشابات جهدا تبرره سنهم بدرجة لاتدع مجالا للتساؤل عما اذا كان ما شاب العهد من عنف وعدم طمأنينة لم ينل من روحهم . واذ أسدل الظلام ستاره ، اقترح « جان بليز » عليهم أن ينتقلوا الى بهو الطابق الاسفل ، فيتسلوا ببعض الالعاب البريئة . ودعتهم « ايلودى » الى لعبة « صيد القلب » ، فقبل الجمع اقتراحها ، وقام « فيليب ديماهى » ـ تحت ارشاد الفتاة ـ برسم سبعة قلوب بالطباشير على قطع الاثاث والجدران .. أى أن عدد القلوب كان أقل من عدد اللاعبين واحدا ، وراحوا يرقصون فى حلقة ، حتى اذا صدرت عن « ايلودى » اشارة ، هرع كل منهم ليضع يده على أحد القلوب ، **وفى الجولة الاولى ، وجد جاميلان كل القلوب مشغولة ، اذ كان شارد الذهن ، غير منسجم مع الجو المحيط به .. فقدم ـ رهنا ـ مديته التى اشتراها بستة ((سو)) ، فى سوق (سان جيرمان) ، والتى أعتاد أن يقطع بهـا الخبز لامه المسكينة** . وعادوا للعب ، فتخلف ـ دورا بعد دور ـ كل من بليز ، وايلودى ، وبروتو ، وتيفينان . وقدم كل منهم رهنا : خاتما ، وحقيبة يد ، وكتابا مغلفا

---

(٥٨) « لا » أداة التعريف للمؤنث فى اللغة الفرنسية ، و « ليه » للمثنى والجمع . وعلى هذا « لا ترونش » أى الفتاة ترونش ، و « ليه ترونش » أى الفتاتان ترونش .

(٥٩) لعبة تعرف باسم « القطة العمياء » ، وفيها تعصب عينا أحد اللاعبين ، ويطالب بتعقب الآخرين .

بالجلد الثمين ، وسوارا ، ثم وضعت الرهائن تباعا على ركبتي « ايلودى » ، وراح كل ــ فى سبيل استرداد رهينته ــ يعرض ميزاته الاجتماعية ، أو ينشد أغنية ، او يلقى قصيدة . فردد « بروتو » حديث شفيع فرنسا ، فى انشودة « العذراء » الاولى :

« أنا دنيس ، ومهنتى قديس .. وأحب ألفال ... »

أما المواطن بليز ، الذى لم يكن أقل منه علما ، فقد بادر بترديد جواب « ريشموند » :

« سيدى القديس ، ليست مبارحة العالم السماوى بالقصاص ... »

وما لبث الجميع أن تحولوا يرددون ــ باستعذاب ــ روائع « اريوست » بالفرنسية (٦٠) ، فاذا أكثر الرجال وقارا يبتسم لغراميات « جان » و « دونوا » ، ومغامرات « آنييه » و « مونروز » ، وكان كل المثقفين يحفظون عن ظهر قلب مواطن الجمال فى تلك القصائد الزاخرة بالفلسفة وبكل ما يهفو بالمشاعر .. حتى « ايفاريست جاميلان » ــ ذو المزاج الصارم ــ ألقى فى سبيل استرداد مديته من « ايلودى » ، الابيات الخاصة بدخول جريسبوردون الى الجحيم ، عن طيب خاطر . وغنت المواطنة «تيفينان» ــ بدون موسيقى تصاحبها ــ قصة «نينا» : **«عندما يعود الحبيب ..»**

وفى تلك الأثناء ، كان ديماهى مشغول البال .. كان ــ فى تلك الساعة ــ مشغوفا بحب النسوة الثلاث اللائى لعب معهن ، فراح يرمى كلا منهن بنظرات ملتهبة وناعمة ، فى آن واحد .. كان يحب « تيفينان » لجمالها ، ورقة أعطافها ،

---

(٦٠) الشاعر الايطالى لودفيكو اريستو (١٤٧٤ ــ ١٥٣٣) ، كان من أشهر شعراء النهضة ، وعرف بسعة الخيال ، وسمامة الالهام ، وجزالة اللفظ .

وإلمامها بفنها ؛ ونظراتها ، وصوتها الذى كان ينفذ الى الفؤاد .. وكان يحب فى «ايلودى» طبيعتها الفياضة ، الفنية ، المفداقة .. أما جوليين هازار ، فقد أحبها ـ برغم شعرها الحائل اللون ، وأهدابها البيضاء ، وبقع الكلف (النمش) ، وقوامها الهزيل ـ لأنها كانت على شاكلة «دونوا» التى تحدث عنها « فولتير » فى قصيدة « العذراء » .. **كانت على استعداد دائما ، لأن تبدى ـ بسخائها ـ لأقل الناس جمالا ، نفحة من الحب .. ولأنها كانت تبدو أقل النساء اكتراثا ، وأشدهن مناعة ، فى آن واحد !**

واذ كان « ديماهى » خلوا من كل غرور ، فانه لم يطمئن يوما الى انه موضع رضى وقبول ، كما أنه لم يطمئن يوما الى أنه موضع استهجان ونفور .. لذلك كان ينتهز كل فرصة ليتقرب ، غير حافل بالنتيجة . فاستغل الفترات السعيدة التى كان يتماس فيها مع كل منهن أثناء اللعب، فألقى ببضع كلمات غزلية رقيقة الى « تيفينان » ، لم تغضب لها ولكنها لم تقو على الرد تحت نظرات المواطن « جان بليز » المفعمة بالغيرة .. وكان أشد وجدا فى حديثه الى المواطنة «ايلودى»، التى كان يعرف ارتباطها بجاميلان ، ولكنه لم يكن متعنتا يصر على أن يكون قلبها له وحده .. **ولم تملك « ايلودى » أن تحبه ، ولكنها كانت تراه جميلا ، ولم تنجح قط فى اخفاء شعورها هذا عنه** .. وأخيرا ، رفع صوته المؤثر الى أذن المواطنة « هازار » ، فتلقته بجو من الحيرة والذهول ، كان خليقا بأن يوحى بانصياع متورط ، أكثر مما يوحى بعدم اكتراث حزين . ومن ثم لم يخطر ببال « ديماهى » قط أنها لم تكن تحفل به !

***

ولم يكن فى الفندق الريفى غير غرفتين للنوم ، كلتاهما فى الطابق الاول ، وتجمعهما ردهة واحدة . وكانت اليسرى أجملهما ، وقد كسيت بورق نقشت عليه زهور ، وازدانت بمرآة تعرض اطارها المذهب لعدوان الذباب منذ طفولة لويس الخامس عشر . وفى هذه الحجرة ، تحت سماء من الحرير الهندى ، قام سريران مزودان بوسائد من الريش ، والحشية من الزغب الناعم .. وقد خصصت هذه الحجرة للمواطنات الثلاث .

واذ حانت ساعة النوم ، أمسك كل من « ديماهى » والمواطنة « هازار » شمعدانا فى يده ، وتبادلا تحية المساء فى الردهة . ودفع الحفار العاشق الى ابنة تاجر الالوان ، بقصاصة ألح عليها فيها بأن تلحق به ــ بعد أن ينام الجميع ــ فى مخزن المحصولات الغذائية ، الذى كان يعلو مخدع المواطنات .. وكان بذكائه وبعد نظره قد درس ــ أثناء النهار ــ المكان ، وارتاد المخزن الذى كان مليئا بحزم البصل ، وبالفواكه التى كانت تجفف تحت خلايا النحل ، وجرار العسل .. وقد لمح ــ هناك ــ سريرا متداعيا ، غير مستعمل ، بدت له عليه شبه حشية بالية ، تسكنها البراغيث !

وكانت فى مواجهة مخدع المواطنات غرفة ذات ثلاثة أسرة صغيرة ، كان على المواطنين أن يفترشوها كما يعن لهم . ولكن « بروتو » ــ الذى كان متقشفا ــ سعى الى مخزن الغلال ، فنام فى أكناف التبن . أما « جان بليز » فقد اختفى .. وسرعان ما نام ديبوا وجاميلان . اما « ديماهى » ، فقد استلقى على سرير .. حتى اذا غمر صمت الليل الدار ــ كأنه ماء ناعس ــ نهض الحفار وتسلق السلم الخشبى ، الذى راح يئز تحت قدميه الحافيتين . وكان مخزن المحصولات مواربا ، تفوح من داخله حرارة خانقة وروائح عفنة منبعثة

من الثمار الذاوية . وعلى سرير متداع ، كانت « لاترونش » نائمة ، فاغرة الفم ، وقد انحسر قميصها عن ساقيها المعوجتين . وكانت ضخمة الجثة .. وخلال كوة فى الجدار، كان شعاع من نور القمر ، يغمر بشرتها بمزيج من اللازورد والفضة ، فاذا بها تتألق بالشباب والنضارة !!

وارتمى « ديماهى » عليها ، فاستيقظت بغتة ، وتولاها الجزع فصرخت ، ولكنها لم تكد تفهم بغيته حتى اطمأنت ، ولم تبد دهشة ولا معارضة ، بل تظاهرت بالاستسلام لشبه اغفاءة ، كانت تسمح لها بأن تعى ما يحدث ، فتبدى له شيئا من العاطفة ..

وعاد « ديماهى » الى غرفته ، حيث استغرق فى نوم هادىء ، عميق ، حتى النهار .

***

وبعد أن قضى أعضاء « الاكاديمية » سحابة اليوم التالى فى العمل ، تأهبوا للعودة الى باريس . وعندما دفع « جار بيز » الحساب بالعملة الورقية ، راح المواطن « بواترين » يشكو الحرمان من العملة « الفضية المربعة » ، ويتعهد بأن يهب سمعه جميلة لمن يرد العملات الذهبية الى التعامل .

ثم قدم الزهور الى المواطنات . وبأمر منه ، وقفت « لاترونش » على سلم خشبى متنقل ، وقد انتعلت « شبقابين » ، ورفعت أطراف ثوبها ، فكشفت للضوء عن فخذيها الورديتين المتسختين ، وراحت تقطع الورود من أشجار الورد الشائكة ، دون كلل . وأخذت الورود تنساب من بين يديها كالمطر ، ثم كالسيل ، ثم كالطوفان ، الى حجر «ايلودى» و «جوليين» و «تيفينان» . فامتلأت بها العربة ..

وعاد كل منهم ــ فى ذلك المساء ــ الى داره وهو محمل بالورود ، التى عطر عبيرها نومهم ويقظتهم .

الفصل الحادى عشر



• فى صباح السابع من سبتمبر ، زارت المواطنة « روشمور » المحلف جاميلان فى داره ، لتوجه اهتمامه الى شخص من معارفها احاطت به الشبهات .. والتقت — عند درج الدار — ببروتو ديزيليت ، الذى كانت قد أحبته فى الايام الهائئة . وكان « بروتو » يهم بنقل اثنتى عشرة « دستة » (٦١) من الدمى التى ابتكرها . الى تاجر للعب فى شارع (لالوا) ، وقد شاء ان يريح نفسه بقدر المستطاع فعلقها فى طرف قصبة طويلة ، على نمط ما يفعل الباعة المتجولون . وكان بطبعه لطيفا مع النساء جميعا ، حتى

---

(٦١) « الدستة » ١٢ وحدة .

اولئك اللائى فترت جاذبيتهن له بطول المعرفة كما كان شأن مدام روشمور .. مع ان ما حف بها من غدر ، وبعاد ، وعدم وفاء ، وبدانة ، نال من اشتهائه اياها . وعلى اية حال ؛ فانه استقبلها على الدرج القذر ، ذى الاحجار المتفككة ، كما اعتاد ان يستقبلها فى الماضى ، على درجات سلم قصر «ديزيليت» . وسألها أن تشرفه بزيارة مسكنه ، فى المخـــزن القائم تحت سطح الدار . وتسلقت السلم المتنقل بخفة ، فألفت نفسها فى «تخشيبة» تحمل عروقها الخشبية غير المتناسقة الطول ، سقفا من الاردواز ، تتخلله كوة . ولم يكن بوســـع المرء ان يقف منتصبا ، فجلست على المقعد الوحيد فى هـــذا المكان المعتم ؛ وبعد ان طافت ببصرها بالآجر المتفكك ، ســـألته فى دهشة وأسى : « أهنا تقيم ياموريس ؟.. انك هنا بمأمن من الثقلاء والمتطفلين ، اذ لا سبيل لغير الشيطان ، او قطـــة ، للعثور عليك هنا ! »

فرد عليها قائلا : « ليس المكان فسيحا ، ولا أكتمك ان المطر يصيب ــ احيانا ــ حصيرتى . ولكن هذا لا يضايقنى كثيرا . ففى الليالى الصافية ، أرى القمر ، شبيه العشاق ، وشاهد غراميات البشر . اذ ان العشاق يا ســـــيدتى ، يشهدون القمر ــ فى كافة الازمان ــ على هواهم .. كما انه بوجهه الصبوح ، الشاحب ، المستدير ، يذكر العاشـــــق بمشتهاه ! »

فقالت المواطنة : «صحيح !» .. واستطرد بروتو قائلا :

« ان القطط تثير صخبا عذبا ، فى هـــذا الركن المهمل ، فى موسمها . ولكن من حق الحب ان نتسامح ازاء المواء والهرج على السقوف ، وان كان الحب يملأ حيـــاة البشر بالوان العذاب والآثام ! » .

كان الاثنان من الحكمة بحيث تقاربا كأنهما صديقان افترقا بالامس ، ليأوى كل منهما الى مخدعه .. وبالرغم من انهما أصبحا غريبين — كل منهما بالنسبة للآخر — فقد راحا يتسامران فى تلاطف وألفة .

وفى هذه الاثناء ؛ كانت مدام دى روشمور بادية القلق . فان الثورة — التى ابتسمت لهاطويلا واجدت عليها ارباحا — أصبحت تحمل اليها ما يثير شغلها وقلقها . وباتت حفلات العشاء التى تقيمها أقل اشراقا وبهجة من ذى قبل . ولم تعد انغام قيثارتها تشيع الصفاء فى الوجوه المكفهرة . وغاب كبار الاثرياء عن موائد الميسر عندها .. واختفى كثيرون ممن كانوا مألوفين لديها ، اذ اصبحت الشبهات تحف بهم .. وألقى القبض على صديقها المالى «مورهارت» ، ومن اجله جاءت تستشير المحلف « جاميلان » . بل ان **الشبهات احاطت بها هى الاخرى ، فدهم الحرس الوطنى مسكنها ، وقلبوا أدراج صواناتها ، ورفعوا الواح ارضيات غرفها ، ودقوا بالعصى حشيات فراشها ، فلما لم يعثروا على شىء اعتذروا لها ، وشربوا نبيذها** . ولكنهم كانوا جد قريبين من اكتشاف مراسلاتها مع أحد المهاجرين ، وهو السيد « ديكسبيللى » . وقد افضى اليها بعض اصدقاء لها بين اليعاقبة ، بأن صديقها « هنرى » الجميل ، قد أصبح موضع شبهات بفضل اسرافه فى العنف ليظهر بمظهر المخلص الوفى للثورة .

واعتمدت بذراعيها على ركبتيها ، وغاصت اصابعها فى خديها ، وسألت صديقها القديم الذى افترش الحصير ، وهى شاردة الفكر : « ما رأيك فى كل هذا يا موريس ؟ »

— عين ما قلت حين سألتنى يا لويز — ذات يوم — ونحن

فى مركبة على ضفة نهر (شير) ، تقلنا فى طريق (ديزيليت)، اذ شد الفرس العنان بين اسنانه ، وانطلق يجرى جامحا . الا ما اشد فضول النساء !.. ها انتذى تسأليننى ــ مرة أخرى ــ الى أين ننطلق !.. سلى فى هــــذا أولئك الذين يسحبون الورق . لست أقرأ الغيب يا صديقتى . وليست الفلسفة ــ فى اكثر اشكالها حكمة ــ ذات عون فى استطلاع المستقبل . لسوف تنتهى كل هذه الاشياء ، كما انتهت كل الاشياء قبلها . وبوسع المرء ان يرى للنهاية عدة أشــكال : انتصار التحالف ودخول الحلفاء باريس . فهم غير بعيدين عنها .. ومع ذلك فانى ارتاب فى أنهم سيصلون اليها . ان جنود الجمهورية تتملكهم حمية لا قبل لشىء على اطفائها .. وقد يقدر لروبسبيير أن يتزوج مدام رويال (٦٢) ، ويعلن نفسه حاميا للمملكة الى ان يبلغ لويس السابع عشر سن الرشد !!

فصاحت المواطنة وقد ضايقها هــــذا التصوير الذى يستهوى الخيــــال : « اتظن ذلك ؟ » .. ولم يجب ، بل استطرد يقول : ((**كذلك قد يمضى اقليم(فانديه) فى ثورته ، فيتوطد حكم القساوسة على انقاض الخرائب ، وعلى اكوام الجثث . وليس بوسعك ان تدركى يا عزيزتى ، كيف يكون حكم القساوسة لجمهور ((الحمير)) .. اردت ان اقــول ((الانفس)) ، ولكن لسانى انحرف (٦٣)** . والاكثر احتمالا ــ فى رأيى ــ هو أن المحكمة الثورية ستؤدى الى انهيــــار نظام الحكم الذى اقامها . فهى تهدد رؤوسا كثيرة جدا ..

---

(٦٢) الملكة السابقة .

(٦٣) الأصل ânes ــ أى حمير و âmes أى نفس . ومن هنــا نلمس المفارقة . زلة اللسان !.

لا حصر للذين تثير الرعب فى نفوسهم ، وهم لن يلبثوا ان يضموا صفوفهم ، ولكى يهدموها سيهدمون نظـام الحكم . واظنك رشحت الشاب « جاميلان » لهذه المحكمة ، وهـو فاضل ، ورهيب فى الوقت ذاته . وكلما فكرت يا صديقتى الحسناء ، ازددت اعتقادا بأن هذه المحكمة التى انشئت لتنقذ الجمهورية ستقضى عليها . ولقد شاء المؤتمر الوطنى ـ كما شاءت الملكية ـ انيكون للجمهوريةاعيادها ، وبرلمانها المليء بالحماس ، وسلطانها على الامن ، عن طريق مأمورين قضائيين تعينهم ويكونون تابعين لها . ولكن ما أقل شـأن اعياد المؤتمر بالنسبة لاعياد الملكية !.. وبرلمـانه المتحمس اقل خوضا فى السياسة من برلمان لويس الرابع عشر !.. ان محكمة الثورة يسودها شعور من العـــدالة الوضيعة والمساواة السطحية ، يجعلها أحيانا بغيضة ، سخيفة . تكره الناس جميعا . أتعرفين يا لويز ان هـــذه المحكمة التى ستستدعى للمثول امامها ملكة فرنسا وواحد وعشرون من رجـــال التشريع ، قضت بالامس على خادم اتهمت بانها هتفت : «يحيا الملك !» ،بسوء نية ، بغية هدم الجمهورية ؟.. **ان قضاتنا ـ بقبعاتهم ذات الريش الاسـود ـ يعملون على طريقة ذلك الـ «وليم شكسبير» ، الذى يعتز به الانجليز ، والذى كان يقحم على اشد المناظر اثارة للاسى ـ فى تمثيلياته ـ فكاهات سمجة ! »**

الجزء الثانى يصدر بعد أيام فترقبه